



الرّسّام في المنفى سليمان الجادوي

الجيلاني ابن الحاج يحيى



1990

X

الصحافي والمنشد

سليمان الجادوي

الصحافي والمنشد
سليمان الجادوي

دراسة وتحقيق

الجيلاني ابن الحلي يحيى



الصحافي المناهض سليمان الجادوي

دراسة وتحقيق

المجلافي ابن الحاج مجني

ISBN 978-93-9073-19-030-3

© 2006

تمت الطباعة في 1001

بمطبعة

WWW.CERES.EDITIONS.COM



نعم في رمتك
نعم في الجان لميت

تقيقع قسار
نخيل لجان لميت

ISBN 978-9973-19-690-3

© 2006 سراس للنشر

6. نهج آلان سافري، 1002 تونس

ص.ب. 56 تونس البليدير

www.ceres-editions.com

الإهداء

إلى روح المثقف المتميّز الرّصين، والمؤرّخ المدقّق الأمين،
المعتزّ بدينه، ووطنيّته، وأصالته العربيّة الإسلاميّة.

إلى الصّدّيق العزيز، الفقيد

حمّادي السّاحلي

صُبّت على قبره شآبيب الرّحمة والرّضوان.

حافظ الودّ

الجيلانيّ ابن الحلاجي

(1871-1951)، الذي ابن الأستاذ الجليلي تونس في 2006/07/24

لأنّه يُعطي النّظام عن سيرة هذا الرّجل. ونضاله المستميت من أجل
تحرير البلاد، وإصلاح أحوالها السياسيّة، والدينيّة، والعلميّة،
والاقتصاديّة... عن طريق الكلمة النّافعة، فقام بذلك أحسن قيام.
إنّها السّكّلة الرّابطة، إنّها الصحافة المكتوبة: «إنّها أنجع نواة لصنّاع
التّأخّر، وجرائيم الانحطاط، وأكبر رادع للفراغة الطّفا... إنّها تنهض
الأمم، إلى شامخ القمم...» على حدّ تعبير «الجاندي».

لقد أصنر الرّجل ثلاث جرائد، ظلّت تقارع الزّمن بقدر المستطاع
طيلة نصف قرن، وهذا ليس بالأمر البين في كلّ زمان
«المرشد»، «مرشد الأيّّة»، «أبو نوّاس».

الإسلام ماضيه وحاضره

سنسعى في هذا الفصل إلى تجلية الإسلام الخالص الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين إلى نحو مائتي سنة بعد الهجرة، لأنه قد آن الزمان الذي يجب على كل ذي غيرة إسلامية أن يعمل فيه جهده لإرجاع الحياة إلى أمته التي تتنازعها الشبه والشكوك والبدع، حتى أصبحت حيرى بين يدي الحوادث من جهة دينها ومعقولاتها وإحساساتها وعواطفها، وفي حاجة شديدة إلى عقول المتتورين من أبنائها. ويظهر لنا أنه يجب على كل مفكر الآن أن يجاهر بفكره، غير خاش لومة لائم. وحرام على كل ذي بصيرة نافذة أن يكتم ما عنده حفظاً لمركزه أو مداراة لرؤساء وظيفته، فقد برح الخفاء وصار من الجبن الأدبي أن يكتم المصلح فكرته في الإصلاح بعد ما تبين له أن الكتمان لا فائدة منه إلا إقرار الداء على سريانه، وما وراء استشرائه إلا البلاء المحقق، والخطر المرهق. وعلام يكتم المصلح فكرته بعد ما ظهر له أن داء الجمود سرى في كل طائفة من طوائف الأمة فأصبح العلماء بما أدخلوا أنفسهم فيه من الانقطاع للأقاويل المعضلة، وفك رموز كلام بعضهم بعضاً أعجز الناس عن رد شبهة، أو دحض فرية، أو إقامة حجة، وقد علمت العامة منهم ذلك فلوت الكشح عنهم وتركتهم وشأنهم، وصار العامة بما وقر في نفوسهم من عجز علمائهم وعدم غنائهم عنهم في

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نقدٍ

بقلم الدكتور فرحات الجعيري

شهدت البلاد التونسية في النصف الأول من القرن العشرين، وهي تتنّ تحت وطأة الاستعمار الفرنسي، أحداثاً جليلة، أذكت في عديد من رجالاتها روح الوطنية الصادقة، وقد عبّر عنها كلّ منهم بمسلكه الخاص، فأثمرت بعد حين تحرّر البلاد والعباد.

ومن بين هؤلاء الأعلام، المناضل الصحفي الشيخ سليمان الجادوي (1871-1951)، الذي أبى الأستاذ الجيلاني ابن الحاج يحيى - كما عودنا - إلا أن يُميط اللثام عن سيرة هذا الرجل، ونضاله المستميت من أجل تحرير البلاد، وإصلاح أحوالها السياسية، والدينية، والعلمية، والاقتصادية... عن طريق الكلمة النافعة، فقام بذلك أحسن قيام.

إنّها السّلطة الرابعة، إنّها الصحافة المكتوبة: «إنّها أنجع دواء لصداق التأخر، وجراثيم الانحطاط، وأكبر رادع للفراغة الطّغاة... بها تنهض الأمم، إلى شامخ القمم...» على حدّ تعبير «الجادوي».

لقد أصدر الرجل ثلاث جرائد، ظلّت تقارع الزّمن بقدر المستطاع طيلة نصف قرن، وهذا ليس بالأمر الهين في كلّ زمان:

«المرشد»، «مرشد الأمة»، «أبو نواس».

والجادوي في ذلك على يقين من أنه إن لم ينفع الجد، ولم يوقظ الضمائر، فالهزل سلاح أنجع.

وفعلاً، لقد سعى الجيلاني ابن الحاج يحيى إلى إثبات أن هذه الصحف الثلاث، كانت أنجع دواء لصداع التأخر، وجراثيم الانحطاط. إنها تتدرج بحق، ضمن الدعوة الإصلاحية العامة المنبثقة من النصف الثاني من القرن التاسع عشر مع الأفغاني، وخير الدين باشا، وغيرهما من رجالات الإصلاح.

إنها الدعوة للعودة إلى جوهر الإسلام، ولن يتم ذلك إلا بنبذ البدع الضارة، والعادات السيئة، وإصلاح برامج التعليم، وتحرير القضاء، والنظر في إصلاح أحوال المرأة، وما إلى ذلك من وجوه الإصلاح.

كما سعى إلى أن يبين أن الصحافة عند الجادوي هي أكبر رادع للفراغة الطفافة، فهي هو الرجل طيلة نصف قرن، يُصارع المستعمر، فيتحمّل ما يفرضه عليه من غرامات مالية، ومن إقامات في غياهب السجون، ومن تعطيل لجرائده، وهو يُنادي بأعلى صوته في بني وطنه، أن لا سبيل إلى الاستسلام، وكان يغتتم كل فرصة للتشهير بالمستعمر، خاصة بمن يوالونه من أذئاب : «... فإننا نقول لكم كلمة شديدة، عملاً بقاعدة أن (الكلب تَقْرعه العصا) وهو أنكم خاملون جاهلون، عاطلون، مهاذرون...»

وفعلاً، بفضل هذه اللهجة الصريحة الجادة، لم يكن للمستعمر إلا أن يخضع.

وقد توفّي الجادوي، وليس فجر الاستقلال ببعيد. ولم يغفل الأستاذ الجيلاني ابن الحاج يحيى عن إثبات أن الصحافة تُنهض الأمم، إلى شامخ القمم. ألم يكن الجادوي ضمن وفد الأربعين الذي طالب بإعلان الاستقلال ؟ وألم يكن إلى جانب البعلبي ومن معه لحظة تأسيس الحزب ؟ و«حرص على أن تحتضن جريدته مناضلي الحزب، فمكنهم من التعبير بحرية كاملة عن مواقفهم الوطنية».

هذا هو سليمان الجادوي الصحفي المناضل، الذي نهل المعارف على المسلك الإباضي في جزيرة حربة، وفي جبل نفوسة، وكرع من مناهل جامع الزيتونة المعمور، فلم تكن الصحافة عنده مورد رزق ومتعة، وإنما

كانت وجهاً من وجوه النضال الملتزم في سبيل إصلاح الأمة، والارتقاء بها إلى أسمى الدرجات، بل كان الرجل تاجراً يكسب رزقه بعرق جبينه، ويُنفق ماله في سبيل أن تستمرّ جرائده لتكون وجهاً من وجوه النضال في سبيل تحرير الوطن.

ولإثبات كلّ هذا، انتخب مؤلّف هذا الكتاب، جملة من مقالات الجادوي الرّاقية، وفَرها بين أيدي القراء، شاهدة على صحّة ما يقول، دون أن ينسى تنويع كتابه بمجموعة من الوثائق والصّور النّادرة، الّتي جاهد هو الآخر في سبيل جمع شتاتها من هنا وهناك.

رحم الله الشّيخ الجادوي، وأجر الأستاذ الجيلاني ابن الحاج يحيى.

د. فرحات الجعبري

تونس في 25 جوان 2006

الصحافي المناضل

الفصل الأول

أضواء على مسيرة الجاذوي

الصحافي المناضل الشيخ سليمان الجادوي

1871-1951

ما نقول اليوم في رجل كتب منذ مائة عام (بداية من 1906 م) : مشعل «الصحافة أنجع دواء لصُداع التأخر وجراثيم الانحطاط، هي خدٌّ باتر لعقد المُشكلات، وأعظم وازع للجبابرة العُتاة، وأكبر رادع للفراغنة الطُغاة، فهي زمام النّجاح، وبارق الفلاح، ورائد العمران، ومعجزة العرفان، وموقِظة التّومان، وقائد الإنسان إلى عيشة الرّضوان، بها تنهض الأمم، إلى شامخ القمم»¹ .

ما نقول اليوم في هذا الرّجل الذي أنشأ ثلاث جرائد خدمت «الملة والوطن»²، ولكنّه، بسببها، غُرم وسُجن وبُعِثرت تجارتها، فصمد وصبر وقاوم حتّى أعجزه مرض شيخوخته عن المواصلة، وإن لم يستسلم إلّا لرحمة ربّه.

نقول : هذا كتاب له وعنه، هو منه وإليه، شهادة حضور جديد لحضوره القديم المضيء : صحافيّ وطنيّ ملتزم بقضايا أمته خدّ الورع.

1) جريدة «المرشد»، العدد 11، سنة 1906. وانظر : ص 40 من كتاب «الفوائد الجمّة

في منتخبات مرشد الأمة» للشيخ سليمان الجادوي. - 2) «المرشد الأمة» (1) شعار جريدة «مرشد الأمة».

ولد سليمان بن قاسم الجادوي في آجيم بجزيرة جربة خلال سنة 1871¹. وهو من أصل بربري، حسب التسمية الشائعة لسكان شمال إفريقيا الأصليين، ينسب أسلافه إلى بلدة جادو التي توجد وسط جبل نفوسة بالقطر الليبي الشقيق. وذكر المؤرخون والرحالة أن هذه البلدة اشتهرت في بدء الفتح العربي الإسلامي، وخاصة في عهد دولة بني رستم بتاهرت، بكثرة العلماء المجتمعين بها، إذ قيل إنها ضمت في عصر واحد حوالي أربعمئة عالم. ومن هؤلاء العلماء البارزين في بلدة جادو أحد أجداد سليمان الجادوي، هو الشيخ سعيد بن عبد الله الجادوي الذي رحل إلى مصر وقضى بها سنوات طويلة في طلب العلم، أخذاً عن كبار العلماء والفقهاء والصالحاء.

وبعد رجوعه إلى تونس، اختار العيش والاستقرار في جزيرة جربة، حيث درس وأفاد طلابه العديدين الذين كان من بينهم أولاده، ومن بعدهم أحفاده. فكان سليمان الجادوي ثمرة طيبة من ثمار أسلافه الطيبين.

في آجيم، حيث نشأ نشأته الأولى، تعلم مبادئ علوم عصره. ثم رحل إلى تونس وانضم إلى طلبة جامع الزيتونة، فأخذ عن شيوخ كبار، من بينهم: عثمان بن المكّي، وإسماعيل الصّفايحي، ومحمد بن يوسف، وأحمد بيرم، ومصطفى رضوان، وغيرهم...

في تلك الفترة بدأت موهبته الأدبية تتضح من خلال ما كان يكتبه من شعر بالخصوص، كما تثبتته القصيدة التي نشرتها له جريدة «الحاضرة»² بعنوان «صدي عيد الفطر» ومهدت لها بما يلي:

«وردت لنا القصيدة الآتية في رفع فروض الإخلاص للسدة الملوكية وتهنئة حضرة مولانا العلية بعيد الفطر ونعمة العافية، وهي من نظم الأنجب الأديب الفاضل سليمان الجادوي الجربي من أعيان طلبة جامع الزيتونة عمره الله. فالتزمنا إدراجها خدمة للأدب ولركاب الجنب الملوكي العالي، دام ممدوحا بالقلم واللسان مدى الأيام والليالي»:

(1) ذكر بعضهم أنه من مواليد حوالي سنة 1876، إلا أننا نرجح ما أثبتناه.
(2) انظر: جريدة «الحاضرة» العدد 744 الصادر في 15 ديسمبر 1903.

ومن هذه القصيدة نقتطف الأبيات التالية:

تَبَلَّجُ صُبْحُ الْأَمْنِ وَالْيَمْنِ وَالْيُسْرِ وَغَادِرْنَا لَيْلُ الْكَآبَةِ وَالْعُسْرِ
وَأَقْبَلَ مِنْ قَصْرِ السَّعَادَةِ مُنْبَأً وَنَعَمَ بِالْأَرْكَانِ فِي حَيْرَةِ الْفَكْرِ
إِذَا مَا نَمَى أَنَّ الْمَلِكِ (مُحَمَّدٌ) هُوَ الْهَادِي بَاشًا قَدْ تَعَاْفَى مِنَ الضَّرِّ
فَمِنْ خَاشِعٍ لِلَّهِ يَشْكُرُ نِعْمَةً وَمِنْ قَائِمٍ بِالذِّكْرِ لِلْمَنِ الْفُرِّ

اكتفى سليمان الجادوي بثلاث سنوات في جامع الزيتونة، رحل بعدها إلى مدينة يفرن بجبل نفوسة لمتابعة تعلمه الديني، وخاصة للإمام بفقهِ المذهب الإباضي، فلازم دروس الشيخ عبد الله الباروني (1332 هـ/ 1914 م)، إمام مدرّسي الإباضية بالمدرسة البارونية، ولم يغادره إلا بعد أن ازدادت ثقافته الإسلامية عمقا وأصاله، فرجع إلى تونس ليسلك مسلك أبناء جزيرة جربة: العلم والتجارة.

ولئن فتح دكانا في سوق اللّفة بمدينة تونس القديمة، فإنّه فتح أيضا عهدا جديدا في حياته أكسبه، برغم شتّى المحن، مكانة وطنية رفيعة، تجلّت من خلال أعماله الصحفية والنضالية الملتزمة فكريا وممارسة.

كتب سليمان الجادوي، في «فاتحة» كتابه «الفوائد الجمّة في انتخابات «مرشد الأمة»، أنّه رأى أن يقوم بواجب المشاركة في مجال العمل العمومي [الوطني]، ويشاطر من سبقه إليه قلما وتحريرا، تلبية منه لدواعي الضمير، وعملا بأثر صادق المدلول فيه وهو «إنّ لوطنك عليك حق...» فدخله خلال سنة (1324 هـ/ 1906 م) بعد رفع الضمان على الصحف بقرار وزيرى أواخر سنة (1322 هـ/ 1904 م)، وذلك «بتأسيسنا لصحيفة «المرشد»... إلى أن لاقت حتفها ضحية الجهاد الوطني بقرار وزيرى أواخر سنة (1326 هـ/ 1908 م)، يتخلّل ذلك الأمد القصير تحمل مقاساة ومعاناة من خطايا وسجون وأتعاب، علاوة على اللّوم والتّانيب

والمرشد... إلى أن لاقت حتفها ضحية الجهاد الوطني بقرار وزيرى أواخر سنة (1326 هـ/ 1908 م)، يتخلّل ذلك الأمد القصير تحمل مقاساة ومعاناة من خطايا وسجون وأتعاب، علاوة على اللّوم والتّانيب

1) انظر كامل القصيدة في الفصل الثاني، ص 25، 26، 27، 28، 29، 30، 31، 32، 33، 34، 35، 36، 37، 38، 39، 40، 41، 42، 43، 44، 45، 46، 47، 48، 49، 50، 51، 52، 53، 54، 55، 56، 57، 58، 59، 60، 61، 62، 63، 64، 65، 66، 67، 68، 69، 70، 71، 72، 73، 74، 75، 76، 77، 78، 79، 80، 81، 82، 83، 84، 85، 86، 87، 88، 89، 90، 91، 92، 93، 94، 95، 96، 97، 98، 99، 100، 101، 102، 103، 104، 105، 106، 107، 108، 109، 110، 111، 112، 113، 114، 115، 116، 117، 118، 119، 120، 121، 122، 123، 124، 125، 126، 127، 128، 129، 130، 131، 132، 133، 134، 135، 136، 137، 138، 139، 140، 141، 142، 143، 144، 145، 146، 147، 148، 149، 150، 151، 152، 153، 154، 155، 156، 157، 158، 159، 160، 161، 162، 163، 164، 165، 166، 167، 168، 169، 170، 171، 172، 173، 174، 175، 176، 177، 178، 179، 180، 181، 182، 183، 184، 185، 186، 187، 188، 189، 190، 191، 192، 193، 194، 195، 196، 197، 198، 199، 200، 201، 202، 203، 204، 205، 206، 207، 208، 209، 210، 211، 212، 213، 214، 215، 216، 217، 218، 219، 220، 221، 222، 223، 224، 225، 226، 227، 228، 229، 230، 231، 232، 233، 234، 235، 236، 237، 238، 239، 240، 241، 242، 243، 244، 245، 246، 247، 248، 249، 250، 251، 252، 253، 254، 255، 256، 257، 258، 259، 260، 261، 262، 263، 264، 265، 266، 267، 268، 269، 270، 271، 272، 273، 274، 275، 276، 277، 278، 279، 280، 281، 282، 283، 284، 285، 286، 287، 288، 289، 290، 291، 292، 293، 294، 295، 296، 297، 298، 299، 300، 301، 302، 303، 304، 305، 306، 307، 308، 309، 310، 311، 312، 313، 314، 315، 316، 317، 318، 319، 320، 321، 322، 323، 324، 325، 326، 327، 328، 329، 330، 331، 332، 333، 334، 335، 336، 337، 338، 339، 340، 341، 342، 343، 344، 345، 346، 347، 348، 349، 350، 351، 352، 353، 354، 355، 356، 357، 358، 359، 360، 361، 362، 363، 364، 365، 366، 367، 368، 369، 370، 371، 372، 373، 374، 375، 376، 377، 378، 379، 380، 381، 382، 383، 384، 385، 386، 387، 388، 389، 390، 391، 392، 393، 394، 395، 396، 397، 398، 399، 400، 401، 402، 403، 404، 405، 406، 407، 408، 409، 410، 411، 412، 413، 414، 415، 416، 417، 418، 419، 420، 421، 422، 423، 424، 425، 426، 427، 428، 429، 430، 431، 432، 433، 434، 435، 436، 437، 438، 439، 440، 441، 442، 443، 444، 445، 446، 447، 448، 449، 450، 451، 452، 453، 454، 455، 456، 457، 458، 459، 460، 461، 462، 463، 464، 465، 466، 467، 468، 469، 470، 471، 472، 473، 474، 475، 476، 477، 478، 479، 480، 481، 482، 483، 484، 485، 486، 487، 488، 489، 490، 491، 492، 493، 494، 495، 496، 497، 498، 499، 500، 501، 502، 503، 504، 505، 506، 507، 508، 509، 510، 511، 512، 513، 514، 515، 516، 517، 518، 519، 520، 521، 522، 523، 524، 525، 526، 527، 528، 529، 530، 531، 532، 533، 534، 535، 536، 537، 538، 539، 540، 541، 542، 543، 544، 545، 546، 547، 548، 549، 550، 551، 552، 553، 554، 555، 556، 557، 558، 559، 560، 561، 562، 563، 564، 565، 566، 567، 568، 569، 570، 571، 572، 573، 574، 575، 576، 577، 578، 579، 580، 581، 582، 583، 584، 585، 586، 587، 588، 589، 590، 591، 592، 593، 594، 595، 596، 597، 598، 599، 600، 601، 602، 603، 604، 605، 606، 607، 608، 609، 610، 611، 612، 613، 614، 615، 616، 617، 618، 619، 620، 621، 622، 623، 624، 625، 626، 627، 628، 629، 630، 631، 632، 633، 634، 635، 636، 637، 638، 639، 640، 641، 642، 643، 644، 645، 646، 647، 648، 649، 650، 651، 652، 653، 654، 655، 656، 657، 658، 659، 660، 661، 662، 663، 664، 665، 666، 667، 668، 669، 670، 671، 672، 673، 674، 675، 676، 677، 678، 679، 680، 681، 682، 683، 684، 685، 686، 687، 688، 689، 690، 691، 692، 693، 694، 695، 696، 697، 698، 699، 700، 701، 702، 703، 704، 705، 706، 707، 708، 709، 710، 711، 712، 713، 714، 715، 716، 717، 718، 719، 720، 721، 722، 723، 724، 725، 726، 727، 728، 729، 730، 731، 732، 733، 734، 735، 736، 737، 738، 739، 740، 741، 742، 743، 744، 745، 746، 747، 748، 749، 750، 751، 752، 753، 754، 755، 756، 757، 758، 759، 760، 761، 762، 763، 764، 765، 766، 767، 768، 769، 770، 771، 772، 773، 774، 775، 776، 777، 778، 779، 780، 781، 782، 783، 784، 785، 786، 787، 788، 789، 790، 791، 792، 793، 794، 795، 796، 797، 798، 799، 800، 801، 802، 803، 804، 805، 806، 807، 808، 809، 810، 811، 812، 813، 814، 815، 816، 817، 818، 819، 820، 821، 822، 823، 824، 825، 826، 827، 828، 829، 830، 831، 832، 833، 834، 835، 836، 837، 838، 839، 840، 841، 842، 843، 844، 845، 846، 847، 848، 849، 850، 851، 852، 853، 854، 855، 856، 857، 858، 859، 860، 861، 862، 863، 864، 865، 866، 867، 868، 869، 870، 871، 872، 873، 874، 875، 876، 877، 878، 879، 880، 881، 882، 883، 884، 885، 886، 887، 888، 889، 890، 891، 892، 893، 894، 895، 896، 897، 898، 899، 900، 901، 902، 903، 904، 905، 906، 907، 908، 909، 910، 911، 912، 913، 914، 915، 916، 917، 918، 919، 920، 921، 922، 923، 924، 925، 926، 927، 928، 929، 930، 931، 932، 933، 934، 935، 936، 937، 938، 939، 940، 941، 942، 943، 944، 945، 946، 947، 948، 949، 950، 951، 952، 953، 954، 955، 956، 957، 958، 959، 960، 961، 962، 963، 964، 965، 966، 967، 968، 969، 970، 971، 972، 973، 974، 975، 976، 977، 978، 979، 980، 981، 982، 983، 984، 985، 986، 987، 988، 989، 990، 991، 992، 993، 994، 995، 996، 997، 998، 999، 1000

الإداري المختلف الأساليب الذي يندرج إغفاله كل أسبوع، نظراً لحرص صدر الكتابة العامة [للحكومة] عن تحمل ثقل الصراحة في النقد والشدة في البيان، مستتدة في إجراءاتها القاسية المناهضة للعدالة وللحرية القانونية، على جداسة الرأي العام الوطني بالنشريات الدورية.. (ص 9). وكتب أيضاً: «ثم جاءت جريدة «مرشد الأمة» سنة (1327 هـ/ 1909 م)، والتي انتهجنا فيها منهج سلفها من حيث المبدأ الذي لم تؤثر عليه العواصف، ولا أزهيته القواصف، مع زيادة الصراحة في القول التي أوجدتها الظروف، وأيدها الشعب الوطني».

من هذا المدخل ندخل رحاب مسيرة سليمان الجادوي الذي ساهم من 1906 إلى 1950 في ترسيخ حضور الصحافة الوطنية التونسية التي كان الشيخ البشير الفورتي من روادها المؤسسين البارزين¹.

أصدر الجادوي ثلاث جرائد، هي: «تونس» (1906)، «المرشد» (1907)، و«الوطن» (1908).

1 - «المرشد» وهي «جريدة أسبوعية علمية سياسية قضائية تجارية، مقرها 48 نهج باب بنات، تونس»، صدر عددها الأول في 23 نوفمبر 1906. وبعد أكثر من شهر من صدورها، تصدى صاحبها للسلطة الاستعمارية والمتعاونين معها، فحكمت عليه «محكمة التربية» في مارس 1907 بالسجن وغرامة «ثلاثمائة فرنك» وعطلت جريدته. ولذلك يعتبر سليمان الجادوي من أوائل التونسيين الذين سجنوا من أجل حرية التعبير الصحفي.

ولئن استطاع أن يعيد إصدار «المرشد» في جويلية 1907، إلا أنه حوكم في سبتمبر من السنة نفسها بالسجن لمدة شهرين وبغرامة مالية أيضاً. ومن جديد في ديسمبر 1908 تتعطل جريدته نهائياً، وما بين صدورها وتعطيلها استطاع الجادوي أن يجعلها المعبرة، أصدق التعبير، عن أفكاره الإصلاحية، ومواقفه الوطنية التي كانت تزداد تبلوراً وصموداً كلما ازدادت السلطة تغتاً وهيمنة. ولأنه كان مقتنعاً، أعماق الاقتناع، بأن

سليمان الجادوي من رواد الصحافة الوطنية التونسية.

- (1) ص 11 من كتاب «الفوائد»...
- (2) انظر: كتابنا «شيخ الصحافة البشير الفورتي من خلال آثاره»، الصادر عن وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، ضمن سلسلة «ذاكرة وإبداع»، تونس 2005. (ص 1)

المشرد

El-Mourched

جريدة علمية سياسية قضائية تجارية - أسبوعية - أسبوعية من كل أسبوع

السنة الأولى

ن ٢٢

٢٢

في الاشتراك في المشرق

في القطر التونسي والجزائري عن سنة ١٠ فرنكات

اطلبه العالم الجامع الاعظم ٠٨

في القطر المصري وبلاد المغرب وقية المالك

العثمانية ١٢

في مملكة الزنجبار وعمان ١٥

في اجرة الاعلانات عن السطر الواحد

في الصفحة الأولى فريك واحد وفي الثانية ٧٥ صانبا وفي الثالثة

٥ صانبا وفي الرابعة ٢٥ صانبا وإذا تكررت زاجع الافادة

في تخفيض القيمة

في محل ادارة الجريدة

بمكتب المدير سليمان الجادوي بفتح باب البات

امام محكمة التريبونال عدد ٤٨٥

في المراسلات

خالصة اجرة البريد باسم مدير المشرق ولا ترد لاربابها

ادرجت اولم تدرج

تدفع قيمة الاشتراك مقدما

ودفولات الاشتراك الا اذا كانت ممتدة من ممدد

فريدة ومعتومة بفتحته ومن قبل عددين عند مشتركا

Pour tout ce qui concerne l'Administration
redaction s'adresser à M. SLEMAN EL DJADOU, à
Bab-Benat, Tunis.

Bureau et Direction:

48, Rue Bab-Benat, TUNIS.

الموافق ٢٣ اوت سنة ١٩٠٧

نفس يوم الجمعة ١٤ رجب سنة ١٣٢٥

«الصَّحَافَةُ أساس الإرشاد»¹ فقد كتب مخاطباً زملاءه الصَّحَافِيِّينَ : «لا يجب أن يوهن عزائمكم سخط حلّ ببيعضكم، أو اضطهاد قد ضايقكم، لأنّ من يريد الإصلاح والنّهوض بالشَّعب، لا يليق به الجبن والخوف»². ولذلك كانت حياته الصَّحَفِيَّة مرتبطة أشدّ الارتباط بمشاركته السِّياسة الفاعلة منذ فترة ما قبل تأسيس الحزب الحرّ الدِّستوري سنة 1920³. ومن الواضح أنّ التزام الجادوي بالعمل الصَّحَفِيّ الحرّ المسؤول يستند إلى مرجعيَّة ذاتيَّة وموضوعيَّة ظلّ مقتنعا وملتصقا بها في مختلف مراحل نضاله الصَّحَفِيّ. وقد كتب في هذا المعنى موضحاً رأيه الصَّريح في الصَّحَافَةِ : «عليها أن لا تتزَلّف للحكومات، وأن لا تخدم الأغراض السَّافِلة، وأن تقاوم المستبدِّين، وتنبذ الاحتيال والتدجيل، وعليها أن تدافع عن حريَّة الفكر...»⁴

من هذا المنطلق سعى الجادوي إلى توظيف «المرشد» - جريدته الأولى - لإرشاد مواطنيه التَّونسيِّين إلى ما فيه خيرهم وخير وطنهم. فدعاهم إلى تغيير ما بأنفسهم من سلبيّات لا مفرّ لهم من التَّغَلُّب عليها ذوداً عن دينهم وفوزاً بدنياهم. ومن هذه السَّلبيّات، بل أخطرها في نظره، الاستسلام إلى «الأمر الواقع»، بما فيه من تخلف واستعمار. وتوضَّح الشَّواهد النّصيَّة المثبتة في الفصل الثَّاني من هذا الكتاب أنّ أسلوب سليمان الجادوي لا يخلو من تناسق أدبيّ يتَّسم بالبساطة والسَّلاسة. ولئن عرف بمقالاته الطَّويلة (كامل الصَّفحة الأولى غالباً) فالأنّه كان حريصاً، في كلّ مقال، على تحليل وشرح ما يودّ لقارئه أن يفهمه منه، دون اللّجوء إلى وسائل لغويَّة وتركيبية تعتبر عنده من معوقات الكتابة الصَّحَفِيَّة الملتزمة بالقضايا الأكثر أهميَّة في عصره. لذلك تجنَّب، في الغالب الأعمّ، التَّورية المفضية إلى الغموض، وإن

(1) «المرشد»، العدد 11، سنة 1907. انظر: مقال «الصَّحَافَةُ» في كتاب «الفوائد الجمَّة في منتخبات مرشد الأُمَّة»، ص 41.

(2) «المرشد» نفس العدد، ص 44 من «الفوائد...»

(3) تتمثَّل هذه المشاركة في مقالاته المنشورة من 1906 إلى 1920، إضافة إلى مشاركته في «وفد الأُمَّة».

(4) «المرشد»، نفس العدد، و ص 40 من «الفوائد...»

اضطرّ أحياناً إلى الرّمز الخيالي السّاحر، مثل خاطرته «من السّماء إلى الأرض» التي أمضاها بـ«مكاتبتكم الخصوصي بالسماء الرابعة». وعلى الرّغم من أنّه استعمل السّجع لأغراض إنشائيّة بلاغيّة متداولة عند الكتاب التّونسيّين في ذلك العصر، وغيرهم، إلّا أنّه ركّز على المضامين، سواء تعلّقت بمعالجات اجتماعيّة وسياسيّة واقتصاديّة، أو بتناولات دينيّة لا تخلو من اجتهاد في نطاق المرجعيّة الإسلاميّة نفسها. ومن ذلك تأكّيده الدّائم على ضرورة التّمسّك بجوهر الإسلام، كما بيّنه في مقال نشره بالعدد الثّاني من «المرشد» سنة 1906: «إنّ الشّريعة المطهّرة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر»، وهي «تحتّ على التّعاون وكلّ ما لنا فيه خير، وتنهانا عن الرّدائل وكلّ ضير، كالكذب، والسّرقة، والنّميمة، والغيبة، والكبر، والرياء، والحسد، وما شاكل ذلك من سائر أنواع الموبقات التي تأبأها الكرامة الإنسانيّة، ويمجّها العقل السّليم، وينفرها الطّبع المستقيم، وتطلب حفظ الدّين، والنّفس، والمال، والعرض، والنّسب التي بها قوام دعائم العمران، وعليها يدور محور بني الإنسان...». هذا هو معنى التّمسّك بجوهر الإسلام. ومنه استمدّ الجادوي عناصر تحليلاته النّقديّة لما رآه يستوجب الإصلاح في مجتمعه خلال بداية القرن العشرين. فدعا بحزم إلى مقاومة البدع والعادات السيّئة، والسّلوكات المنحرفة، والاعتقادات المتخلّفة. كما دعا، في الآن نفسه، إلى ضرورة إصلاح «التّعليم التّونسيّ» بما يجعله يستفيد من

- (1) «المرشد»، العدد 33، سنة 1907، و ص 101 من «الفوائد...»
- (2) مقال «قطرة قلم». انظر: الأعداد 2-5 من «المرشد»، 1906، والصفّحات 20-30 من كتاب «الفوائد...»
- مقال «الإسلام: ماضيه وحاضره»، العددان 8 و 9 من «المرشد»، 1907، والصفّحات 34-39 من كتاب «الفوائد...»
- مقال «الجهل والعلم»، العدد 23 من «المرشد»، 1908، والصفّحات 77-80 من كتاب «الفوائد...»
- مقال «التمدّن»، العدد 28 من «المرشد»، 1908، والصفّحات 91-93 من كتاب «الفوائد...»
- مقال «رجال الإصلاح»، العدد 36 من «المرشد»، 1909، والصفّحات 115-117 من كتاب «الفوائد...»

«العلوم العصرية»، وبالخصوص التطبيقية كالزراعة إذ حثّ التونسيين على تكوين شركات فلاحية لجلب الآلات المتطورة، وتعليم الفلاحين كيفية استعمالها للحفاظ على أراضيهم حتّى لا يطمع الأجانب في اقتكاكها منهم. ودعا أيضا إلى تكوين شركات أهلية [وطنية] في شتّى المجالات الاقتصادية : كالبنوك، والمتاجر، وغيرها... ممّا يقوّي الاقتصاد التونسيّ، ويساهم في حلّ عديد المشاكل الاجتماعية : كالبطالة، والانحراف المرتبط بالفقر، والأميّة...¹

ومن يقرأ اليوم مجمل مقالاته في «المرشد» ضمن كتابه «الفوائد الجمّة في منتخبات مرشد الأمة»، يدرك وضوح توجهاته الإصلاحية الرائدة التي بدأ بها مسيرته الصحفية، والتي أغضبت عليه خصومه الرجعيين والاستعماريين، فسعوا إلى إسكاته بالغرامات، والتهديد، والسجن، إذ كانت الإدارة الفرنسية تدعوه عنوة في كلّ أسبوع إلى مراكز الشرطة لتحذيره من التّماذي في الكتابة عنها بما لا يرضيها، فكان لا يكثرث بتهديدها، ويكتب عنها بإصرار : «...كانت الإدارة تتخبّط في الغضب حين تنظر إلى القانون، فلا تجد مبرّرا لمرادها فيه، وترى التّحرير، فيضيق صدر الإرهاب منها، فترسل وراءنا، وتبدي لنا من التهديد الصّريح تارة، والمُرمّم أخرى، ما أضحكنا يوما عندما عجزت عن الإتيان بدليل ما، حيث قالت لنا بلسان كاهيتها المستعرب... إنّ هذا الفصل متجسّم شدة، وإنّه يحدث وجعا في البطن ! فأجبناه بأنّ ذلك شأن يخصّ الأطباء. ثمّ أسفرت المقابلة عن ابتسام مصفرّ، أعقبه وداع !»²

ولمّا قرأت الرّقابة الاستعمارية ما كتب بعد أن أضاف ما زادها غضبا، دعتّه من جديد، إلّا أنّه تمسك بحقه كاملا في التّعبير عن غضبه، ويروي

(1) مقال «الصّناعة»، العدد 13، من «المرشد»، 1907، والصفّحات 48-50 من كتاب «الفوائد...»

- انظر : هوامش مقال «مجادلة بين الوطن ودوكرنيار»، العدد 38 من «المرشد»، 1909، والصفّحات 110-115 من كتاب «الفوائد...»

وقد أفرد الجادوي في جريدته «مرشد الأمة» عديد المقالات في هذا المجال...
(2) انظر : «فاتحة» كتاب «الفوائد...»، الصفّحتان 9 و 10.

أنّه سأل، بتهكّم مرير، أحد كبار الإداريين الفرنسيين «وهل في قانون الحماية ما يمنع التونسيين من الغضب أيضا ١٦». فلم تجد السلطة أيّ «رأى» يليق بغضبه الساخر غير المحاكمة. وقد كتب في ما بعد مقالا بعنوان «كلمة في محاكمتنا الثانية أمام الدريّة بدعوى إداريّة»^١، ومنه قوله: «... من كان يخطر على باله أنّ الحكومة على نزاهة سرّها، وضخامة قدرها، تتنازل لمشاغبة واحد من رعاياها إذا هو أنكر عليها فعلا، وشدّد معها قولاً، أو ناقشها الحساب في شيء من الأشياء، فضلا عن كونه من المجلّين لقدرها، والمتمثّلين لأمرها، ولو كان المحقّ بعينه... كصاحب هذه الورقة...»

هكذا كان سليمان الجادوي يكتب بأسلوب واضح صريح، ولكنّه ساخر، حادّ، وطريف. فلکم دفعه هذا الأسلوب إلى صراعات حامية ضدّ مناوئيه من الاستعماريّين والموالين لهم، من بينهم أربعة بالخصوص ظلّ يصارعهم سنوات طويلة، وهم لويس ماشويل (Louis Machuel) و دو كارنيار (De Carnières) ومحمّد نعمان، وحسن فلّاتي^٢. فقد رفع ثالثهم قضية ثلّب ضدّ الجادوي الذي دافع عن نفسه بما أفتع أعضاء المحكمة ببراءته، إذ انبهروا بفصاحته وقوّة حجّته. فلمّا أصدرت المحكمة حكمها بعدم سماع الدّعوى، اعترض بعض مناوئيه، ممّا اضطرّه إلى الرّد عليهم بمقال باتر لم يسبق له مثيل في تاريخ الصحافة

(1) انظر: «المرشد»، العدد 35، سنة 1908، والصفحات 107-109 من كتاب «الفوائد...»
(2) في ردود الجادوي على نعمان وفلّاتي، انظر مقالاته: «الصحافة العربيّة والمحامى نعمان»، الصفحات 459-463 من كتاب «الفوائد...»
- «محكم البرهان في الرّد على حزب الخذلان»، الصفحات 484-490 من كتاب «الفوائد...»

- «مالنا وللطلقاء»، الصفحات 490-495 من كتاب «الفوائد...»
- «ما بعد العيان بيان»، الصفحات 495-500 من كتاب «الفوائد...»
- «إيضاح حقيقة عن الوفد الدّستوري الثّاني - أو ألعاب فلّاتي -»، نشره الجادوي في «مرشد الأمة»، العدد 78، بقلم حمدة المنستيري، أمين مال الحزب الدّستوري والعضو بالوفد الثّاني. انظر: الصفحات 501-504 من كتاب «الفوائد...»
وأما ردود الجادوي على ماشويل ودو كارنيار، فسنذكرها في أوّنها.

التونسية، وهو جدير بأن نقطف منه ما يلي: «... يا هؤلاء المعترضين، وإن كانت لا تجمل مجاراتكم ومناقشتكم لكونكم تمثلون الطبقة السفلى من الأمة في أشنع أزيائها، والفئة الرديئة منها في أقبح أشكالها، فإننا نقول لكم كلمة شديدة، عملاً بقاعدة أن «الكلب تقرعه العصا»... وهي أنكم خاملون، جاهلون، عاطلون، مهذارون، ديدنكم الأخذ من الأعراض، في قهوات الأرياض، وسباب الأمجاد، في شوارع البلاد، والطعن على الكتاب، في كل حائط وباب، مهنتكم الفجور، وغداؤكم نمير الخمر، ولا زرع شرعي يزعمكم، ولا رادع عقلي يردعكم، ولا زاجر عادي يزجركم، ولا مانع حياء يمنعكم ما أنتم فيه منهمكون، وحبطت أعمالكم، وخابت آمالكم، وانكشفت سوءة شقاشقكم، وانفضحت عمارتكم، وبانت دناءتكم، فهلاً صبوتم للرتوع في مراتع الفضيلة، والتخلي عن منازع الرذيلة، وغالبتم فتنة الهوى رجاء الخروج من ربقة بهائم الأنعام؟ هذا ما ننصحه لكم، قبلتم أم رددتم، غضبت أم رضيت، ومن أنذر فقد أعذر، ومن أرشد فقد استحق أن يؤجر، والسلام على من قبل النصيحة واهتدى.»¹

بهذا الأسلوب الحاد، وبأكثر منه حدة، كان سليمان الجادوي «لا يفلت» أي واحد ممن يعتبرهم «دخلاء» من الجانبين، سواء كانوا من الاستعماريين أو من المواليين لهم، ومهما كانت وجهاتهم المهنية والاجتماعية والسياسية. لذلك قررت السلطة، في ديسمبر 1908، أن تعطل نهائياً جريدة «المرشد». ولكن لا السلطة بكل نفوذها، ولا المواليين لها بكل مساعيهم الانتهازية، استطاعوا أن ينالوا شيئاً من عزيمة سليمان الجادوي الذي عاد دون تردد، إلى الساحة الصحفية، بإصدار جريدتين: «أبو نواس» و«مرشد الأمة» سنة 1909، لا تفصل بينهما إلا مدة قصيرة. وقد تعرضتا للمضايقة، ثم للتعطيل مع جرائد تونسية أخرى، إثر أحداث الزلاخ الشهيرة سنة 1911، كما سنبينه عند حديثنا عن الجريدتين.

(1) مقال «الشهامة خير من الجبن»، العدد 20، من «المرشد»، 1907، والصفحات 63-66 من كتاب «الفوائد...»

وفي سنوات الحرب العالمية الأولى، كوّن سليمان الجادوي في متجره بسوق اللّفة «منتدى الوطنيين» ضمّ بعض الصّحافيين، والمناضلين الدّستوريين، والشّيوخ الزيتونيين. فلمّا انتهت الحرب، أعاد الجادوي إصدار «مرشد الأمّة» في 1920، سنة تأسيس الحزب الحرّ الدّستوري بزعامة الشّيخ عبد العزيز الثّعالبي. وقد شارك الجادوي في هذا التّأسيس، وحرص على أن تحتضن جريدته مناضلي الحزب، فمكّنهم من التّعبير بحريّة كاملة عن مواقفهم الوطنيّة، وشاركهم، مشاركة فعّالة في التّصديّ لدعاة الفَرَسَة، والتّجنيس، والتّسلّط على الحريّات العامّة. وممّا يذكر له، تصديّه الحازم، سنة 1925، لنصب تمثال الكاردينال لفيجيرى (Cardinal Lavigerie)¹ وسط العاصمة. فقد عجّلت حملته الصّحفيّة الملتهبة باندلاع غضبة شعبيّة عارمة يوم 28 نوفمبر 1925، لم تستطع الشرّطة الاستعماريّة التّخفيف من حدّتها إلّا بعد بطش عنيف. ثمّ قرّرت السّلطة تعطيل «مرشد الأمّة» يوم 8 ديسمبر من نفس السّنة. وظلّ هذا التّعطيل متواصلا إلى سنة 1936، في عهد حكومة الجبهة الشعبيّة (الفرنسيّة) التي حاولت تعديل قانون الصّحافة بما يسمح، نسبيا، ببعض حريّة التّعبير. ولئن أعاد الجادوي إصدار «مرشد الأمّة»، سنة 1936، إلّا أنّه لم يتمكّن - ربّما لأسباب صحيّة وماليّة - من المواظبة على انتظام إصدارها. وفي سنة 1950، توقّفت نهائيا بعد طول مدّ وجزر، ما بين قول وفعل، هما خاتمة نضاله الصّحفيّ الطّويل الذي بدأه سنة 1906: مسيرة شاقّة باهرة في آن، ذكرنا هنا أبرز محطاتها المضيئة، وعلينا الآن أن نذكر المزيد منها تعريفا بجريدته «أبو نواس»، و«مرشد الأمّة».

(1) Cardinal Lavigerie : ولد سنة 1825 بفرنسا وتوفي سنة 1892 بالجزائر. هو من كبار المبشرين بالمسيحيّة الاستعماريّة في الشّمال الإفريقيّ بالخصوص. وقد أرسله البابا يوحنا الثالث عشر إلى تونس سنة 1882 لبعث أسقفية قرطاج، وتكوين منطمة الآباء البيض. وبدعم منه بنيت كاتدرائيّة قرطاج كرمز لتمسيح البلاد التّونسيّة. وقد قاوم الشعب التّونسي، مقاومة شديدة متواصلة، هذه البدعة الاستعماريّة حتّى تمكّن من محوها تماما.

ص 261 من : Dictionnaire illustré de la Tunisie, Paul Lambert, 1912

(2) ومن بينها - كما تجدر الإشارة هنا - مشاركته في وفد الأربعين الذي طلب من محمّد الناصر باي إعلان الدّستور سنة 1920.



تمثال الكاردينال لفيجري بباب البحر، موضوع الحملة الصحفية الملتهبة
التي شنها سليمان الجادوي سنة 1925.

2 - «أبو نواس» وهي «أسبوعية فكاهية هزلية، تصدر يوم الاثنين من كل أسبوع». ظهر عددها الأول يوم 17 أوت 1909، ومنذ بداية صدورها التزمت بمواصلة التعبير عن نفس المنهج الذي سارت عليه جريدة «أبو فشة» المعطلة آنذاك، والتي كان الشيخ محمد الهاشمي المكي أصدرها سنة 1908، ثم عطلتها السلطة الاستعمارية سنة 1909. وكرد فعل على ذلك التعطيل، أصدر [أحمد] بن عيسى بن الشيخ أحمد جريدة «جحا» سنة 1909. فد «أبو نواس» هي الجريدة الفكاهية الثالثة في تونس. وقد قاومت الاستعماريين والمرتزمين، فدعت إلى الإصلاح الديني والاجتماعي. ومنذ صدور عددها الأول تجلت رغبة الجادوي في مواصلة ما بدأه في «المرشد» من نقد وانتقاد، فكتب افتتاحية طويلة (صفحة كاملة)، منها قوله : «لو أن الجرائد الهزلية ما أحدثت إلا للتسلية والفكاهة وجلب دواعي الانسراح، لما أتحفناكم بهاته الجريدة، ولكنها لا تقتصر على هذه الفوائد الثانوية، بل إنها تحيي النفوس الخاملة، وتربي الأفكار الجامدة، وتقوي الإحساس، وتبث الشعور، وتزيد في الإدراك [...] إذ هي من أعظم عوامل التربية الاجتماعية، لأنها تشخص المحاسن في أجل صورها، وتمثل القبائح في أتعس مظاهرها [...] تلك هي منزلة الجرائد الهزلية في الهيئة الاجتماعية. فلا عجب إذا قلنا إنها من أجل الوسائط للخدمة القومية، بل أقرب طريق للإصلاح، لأن الرمز خير من الهمز، لمن كانوا يفقهون، وبالإشارات يفهمون، إذ أن العقلاء تكفيهم الإشارات، وتغنيهم عن العبارات.»¹

وقد رحب عديد الصحافيين والأدباء بهذه الجريدة، من بينهم محمد الجعايبي الذي كتب مقالا لطيفا في «الصواب» أعادت «أبو نواس» نشره في عددها الثالث الصادر يوم 30 أوت 1909، ورد فيه: «أصدر صديقنا البارع الشيخ سليمان الجادوي صحيفة تحت عنوان «أبو نواس». وهي جريدة هزلية الظاهر، جدية الباطن، جرى فيها على أسلوب كبار الكتاب

(1) انظر: كتاب «الصحافة الهزلية في تونس، نشأتها وتطورها، 1906 - 1956» لصديقنا المرحوم حمادي الساحلي، الصفحات 52-61، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1996.

الاشتراك في ابونواس

في تونس والجزائر وطرابلس الغرب
مشتري «مهرش لامة» من سنة ٥
الغرم في الأبالار اقله من سنة ٨
في سائر الممالك اخرى من سنة ١٠

اجرة الاعلانات

عن السطر الواحد

في الصفحة الاولى ٢
القائمة ١٥٠
الثالثة ١٥٠
الرابعة ٥٠

Pour tout ce qui concerne l'Administration et la rédaction adresser à
M. SOLIMAN EL JA'OUÏ, 56, rue
Ben Zed, TUNIS.

ابونواس

ABOU NOUWAS

ادارة المجردة

نهج بن زياد (جلوساية للملكة) عدد ٥٦

المراسلات

توصل خالصة اجرة البريد باسم مدير
المجريدة وسجروها للسلطان الجاهلي

لا يلتفت للغير المصداق من رسائل النشر
ولا ترد لارياها نشرت اولم تنشر

العنوان التلغرافي (ابونواس تونس)

تدفع قيمة الاشتراك سنويا
ووسائل الاشتراك لا تقصر الا اذا
كانت مصداق من مدير المجريدة
وطبها ختم الادارة
من قبل عدد من مستر كاشفة كاملة

Adresse telegraphique : ABON-NOUWAS - TUNIS

الوافر IV سبتمبر لأمير

جريدة اسبوعية فكافية جولية عشر يوم لافلين من كل اسبوع

تونس يوم الاثنين ١٢ رمضان المعظم ١٢٦٧

ليلد قائم ونهاره نائم وهك تعيش البهائم

وبينما انتم اكلون شاربون غيركم شاربون
مترغنون وبينما انتم لا بسون غيركم مكسون
وبينما انتم في منازلكم ما كون غيركم في غرفهم
نائمون وبينما انتم لا تطيقون الاواب غيركم
لا يتعمل الا الاواب

مع ان هناك اساس ليسوا ككنا ترعونون
وتحبون وتلتون وتترغسون بان يعلم الله ما
يقاسون من ألم المجمع والراء والنوم ورا جدران
الا كفاء وان هناك من توجب عليكم ذمكم ان
كان طاهرة مساعدهم بجزء من اموالكم الواقرة
وان منافع افرادكم متوقفة على منافع جامعتكم
وسعادة البعض بسعادة الكل

ما لكم اليوم اعمالكم قاصرة على تسييم
رغائكم وباصرة وقد كنتم خيرامة اخبرجت للناس
تخدمون مصلحة جامعتكم ولو بقطع الرأس
اخذكم الله حتى قست قلوبكم وعميت
بصارتكم رصم مترقين تافرين مشتتين متقابلين
تذكروا عباد الله بالذل والاحسان يجازيكم
الله بغفران اجنان

وتدبروا في حكمة الدين العظيم وما جاء في
القرآن الكريم
(واحسنوا ان الله يحب المحسنين . ان
تناهوا البرحتى تنفقوا مما تحبون . ولنفق ذو
سعة من سعة)

حتى يخلل شعوره ويخرج عن حيد كل ذلك
في وقت قسبر وزمان صدحسا بالكم غيركم ممن
ذاق اكثر منكم واداء فرمكم به يسير لو قيل
يعتاب غيركم العسير قائم نادرون وهم عاجزون
وانتم تحضرون جميع المشاكل عند الاقطار وهم
محتاجون لاجدون

الم تشفقون على المذنب المهر بالناس
فندفوا محسرات واعقاب

الم تحنوا على من تقدمكم واشتكموا اليكم
من حالهم وطوبوكم

الم تراقوا على من وثق بهم العجز عند حد
سقوط المرفاعوا ما انتم يفتاوا لقيعات يرفعون
بها الاشمار ويقفلون بها اعمار

الم تحسنوا الى من تواتت عليهم السوابب
والقوم وتكررت عليهم اعطوب والهموم

الزعمتم ان ليس عليكم ما يوجب الشفقة
والرحمة والرافة والاحسان

م حسنت انفسكم انفسكم نفوس تذكرو
في الوجود وان ليس وراء مسحتكم مصلحة تمد
من المبدء

الم ظلمتم ان ليس على المارة الا خدمة ذاتها
واستحصل ما يستحق من الازمنة ومعداتها

الم توعتم ان بينكم انتم مترغنون غيركم
منعمون وبينما انتم مترغنون غيركم منعنون

اخطب المجردة

لهذا لاسبوع لاكمير

(٦)

ايها الناس

من اتبع منكم ما امر الله وكتب الله واوجب الله
واقرض الله فقام باحسان ابتعا لمرضاة الله
واقبالا لاطاعة الله هل تحمله للعطش والجوع
واكماش المعلن والصلوة عاد عليه بالتهذيب وتزينة
النفس والتاديب فظفر الى اخوانه الضعفاء المساكين
المعجزين الصابرين والتفت الى من اصابتهم نواب
الزمن وتوات عليهم المحن من انواع المنقصات
واجناس المشقات من انتقلت اضناهم وععبت
اصبارهم وقعدت اشلارهم وسمت آذانهم وسقطت
استقامهم واعترتهم كل الامراض والالام فكانوا بالطبع
عالة على الانام

لا يقدرون على اخدمة والعمال وليس من
سجنتهم البطالة والكسل ولكن قوتهم قويت
وصحتهم بارت وعيشهم تكدر ورزقهم تندر ولا
حول لهم ولا قسوة الا اذا وثق الله المتفضلين في
مكاسبهم ولتوسعين فيصموا عليهم مما انعم الله
وعطوهم نصيا مما اعطاهم الله

كل واحد منكم المجمع يغسل جسده والعطش
يحرق كبده وقعد بعض العودات يدعب برشده

في هذا المضممار، فكانت وستكون أفضل ما أُخرج للنّاس في هذا الموضوع. ولا غرو إن رأينا الشّيخ سليمان الجادوي فارس الميدان في الهزليّات، بعدما عرفناه وعرفه العموم كاتباً مجيداً، ووطنياً صادقاً في الجدّ. فنرحّب بجريدته «أبو نواس» ونرجو أن يسلك مسلكاً قويمًا في تقويم الأخلاق، وإصلاح العادات الفاسدة بطريق الهزل.¹

وفي عددها السّادس، الصّادر يوم 20 سبتمبر 1909، نشر الشّاعر الشعبيّ قاسم شقرون «ملزومة» ترحيبيةً بالجريدة نقطف منها قوله :

جريدة أبو نَواس عزّ الجَرايدِ يا نَاسَ
هَزلِيهَ أَحسَنَ مِن أَلَفِ سِياسِيّةِ
فِيها مَعاني مَخبيّةِ لَكن، تَحَبُّ الفَرَكَاسَ
فَرَكَسَها طَلَعَ المَعاني وَاَعكِسَها²

وقد جمع الجادوي في هذه الجريدة بين المقالات النّثريّة والملزومات³ والأزجال والأمثال الشعبيّة لنقد وانتقاد ما اعتبره من أسباب تخلف المجتمع التّونسيّ، وبالأخصّو البدع العقيمة والعادات السيّئة، إضافة إلى تدخّل الأجنبيّ الاستعماريّ في الشّؤون الوطنيّة. كان الجادوي يكتب بأسلوب ثنائيّ الصّيّغة، بالعاميّة والفصحى في

(1) انظر نفس المصدر.

(2) انظر نفس المصدر.

(3) من بينها : ملزومة بإمضاء «الشّيخ القيرواني»، نقطف منها قوله :

«بَرَّ النَّصْأَرى جَابَ ماكِناؤُ وَالجَهْلَ رَأهُ عَمَانُنا عَيْنِنا
اسنَاجِقَ تَذري، والنّاس لِلْبِدْعِ صَبِحتَ تَجْري
هَذي مَصايِبَ حارَ مَنها فِكرِي ما لَقِيتِش حَتّى دَوَّ بِشَفِينا»

(عدد يوم 30 أوت 1909)

وملزومة بإمضاء «شاعر شعبيّ من مدينين»، نشرها الجادوي في العدد 12 الصّادر يوم 28 جانفي 1910، بعنوان «دعوة إلى العمل»، بدأها صاحبها بقوله :

«يا سَاكِنِينَ الخَضَرا إنْتَمَ بِيكُم جَمِيعَ أَمراضنا تَبْرا»

وبعد أن طلب عون أهل بعض مدن وقرى البلاد التّونسيّة يختم ملزومته بقوله :

«هَذي الغَمّة أجلوها باللّهِ يا رجالِ الهَمّة
إنْتوما قَبْلَ تَقَدّمُوا بالأَمّة وقولولهم من بعد تبَعُوا الجَرّة»

وقد أعاد الجادوي (قوله) «دعوة إلى العمل» (قوله) «دعوة إلى العمل»

① 1st

SECRETARIA GENERAL
DU GOUVERNEMENT
-4 FEVR 1921
C.A.B.

Hinay & Gjakuni, direction to
 "Kosovo & Gjakuni", a to. l.
 1. 9.

No demande d'autorisation

Je fais paraître son Journal.

1/2/20

SLIMAN EL-DJADOU
 مدير جريدة صوت الآف
 Directeur du Journal
 MORCHED EL OUBRA

SECRETARIAT GÉNÉRAL
GOUVERNEMENT
-4 FEV 1922
CAP

100

8/11/2011

طلب الترخيص للإصدار (مرشد الأمة) بخط الجادوي

آن، ولكن افتتاحيته الطويلة كانت في معظمها بالفصحى، وإن كانت عناوينها بالعامية، من بينها :

- « اللّٰي عَمَلٌ بِيَدِ اللّٰهِ يَزِيدُو »

- « اللّٰي يَسْرِقْ صُمَّعَهُ يَحْفَرُ لَهَا بَيْرٌ »

- « طَارَوْا وَجَنَحُوا لَا نَجَحُوا لَا رَجَحُوا »

- « قُولْ مَا تَحِبْ تَسْمَعْ مَا تَكْرَهُ »

- « كُلُّ الْجَمَالِ تَتَعَارِكُ إِلَّا جَمَلْنَا بَارِكْ »

وفي هذه الجريدة ومضت ظاهرة أدبية لافتة للنظر، اعتبرها الأديب محمد الصالح الجابري من المحاولات التونسية الأولى في الكتابة السردية القصصية، إذ كتب الجادوي بعض خواطره الخيالية التي سيزيدها طرافة في «مرشد الأمة». فكان يتعمد المزج بين «المدح» والسخرية كلما كتب عن شخصية تستحق، في نظره النقد والانتقاد. ومن ذلك أنه كتب، في العدد 16 (22 ديسمبر 1909) من «أبو نواس» عن متفقد اللغة العربية في المدارس الابتدائية الذي «أهان المعلمين التونسيين، على الرغم من أنه تونسي»¹، وأضاف : «يقول [المسيو دوكارنيار] زعيم المعمرين الفرنسيين : إن التونسيين لم تكن فيهم كفاءة للوظائف، وإن الأمان والاطمئنان منفيان عنهم البتة، وهو غلط منه، وإن كان الغلط منه لا يستغرب بحال. فما هي حجته، وهاهو بين أيدينا متفقد التعليم العربي فضيلة العلامة المسيو الصادق التلاتلي، وقد أظهر من البراعة في خدمته، والتفنن العجيب في حفظ ناموس وظيفه جنابه، ما سرنا وسر الإدارة وسر الناس جميعا». وحتى يكون نقده واضحا كل الوضوح، قدم بعض «العينات» الدالة على سلوك هذا المتفقد. وذكّرنا ما كتبه الجادوي بما كتبه أيضا محمود بيرم التونسي عن نفس المتفقد، وبنفس الأسلوب تقريبا، بعد أكثر من ربع قرن. فمما نشره في جريدة «الشباب»، يوم 29 أكتوبر 1936، قوله : «صادقنا التلاتلي، زان تونس، ونورها،

(1) سنعود إلى هذا الموضوع عند حديثنا عن «مرشد الأمة».

وشرفها بشخصه، وعلمه وعمله، شخصه يشبه الماريشال جوفر^١ في الملامح، والمشية، والنشاط. وهو يشعر بهذه المزايا، ولا يسمح لأحد بتجاهلها. كان إذا دخل المدرسة ليفتّشها، نادى المعلم أمام التلامذة، وأمره بأن يخلع له معطفه ويعلقه على «الرّشّاقة» [المشجب] ولم يمتنع عن خلع معطف أستاذنا إلّا معلّم واحد ادّعى أنّ هذا العمل مسقط لكرامة المعلمين ولولا أنّ المعلّم عاد فقدم الخضوع، وتعهّد بأخذ معطف الرئيس وتعليقه على «الرّشّاقة». ولو كنت أنا في مكان هذا المعلّم لنزعت لرئيسي معطفه وحذاءه، ووضعتهما على رأسي لا على الرّشّاقة!

بمثل هذا المزج بين «المدح» والسّخرية، كان سليمان الجادوي رائد أسلوب متميّز في الكتابة الكاريكاتورية الهزليّة. ولئن ذكرنا ما كتبه عن متفكّد التعليم، ثمّ تذكّرنا ما كتبه عنه أيضا محمود بيرم التونسيّ، فلتوضّيح أسلوب الجادوي الريّادي. بل إنّ لهذا التّوضيح إضافة هنا لمزيد الإفادة: عندما تعطلّت جريدة «النّصر» لصاحبها محسن زكريّا، نقل الجادوي في «أبو نواس» (العدد 16 سنة 1910) النّص الحرفيّ لقرار التّعطيل: «بعد اطلاعنا على الأمر العليّ المؤرّخ في 6 ماي 1893، وحيث إنّ الجريدة المسماة بـ«النّصر» أدرجت بعددها الحادي عشر المؤرّخ في 25 نوفمبر 1910 تحت عنوان «الجمعيّة الشّوريّة» فصلا تضمّن تهديدات موجهة إلى الدولة من شأنها التّشويش على العموم، أصدرنا قرارنا بما يأتي: حجّرنا طبع ونشر وجولان جريدة «النّصر». ثمّ علّق الجادوي على ما نقل: «لعمري، إنّ هذا القرار قد جاء آية في الحكمة والسّداد، لإتيانه طبق القوانين والأوامر العليّة كما رأيت، مشيرا للفصل الذي أوجبه بالسّوء، بلا زيادة ولا نقصان، خلافا لما نعهدده سابقا من القرارات التي تعطلّت بها الصّحف، كـ«الزّهرة»، و«المزّعج»، و«سبيل الرّشاد»، و«المرشد»، و«الرّشديّة»، و«الصّواب»، و«المضحك»، و«أبو فثّة»، و«الإسلام»، و«المنصف»، و«ججا»... فإنّها كانت بقرار يقتصر فيه على «عطلّنا وحجّرنا». وهو ما يبشّر بأنّ نظام الدّولة يزداد تحسّينا على حسنه، وما الفضل في الحقيقة إلّا لهذا العهد الأنور الميمون....»

١) جوزيف جوفر J. Joffre (1852-1931): من كبار العسكريين الفرنسيين. (مصدر)

ونصل الآن إلى أبرز جريدة أصدرها سليمان الجادوي، وهي :
3 - «مرشد الأمة» وهي «أسبوعية علمية سياسية مقرها 106 نهج سوق اللّفة، تونس». صدر عددها الأول - كما ذكرنا - في صيف 1909، وتعطلت في 8 نوفمبر 1911 إثر أحداث الزّلاّج. ثمّ استأنفت الصّدور في فيفري 1920، وتعطلت في ديسمبر 1925 (العدد 121 ليوم 29 فيفري). وفي سنة 1936 عادت للصّدور (من العدد 122 إلى 232)، ثمّ تعطلت في ديسمبر 1948 (العدد 233). وأخيرا غابت نهائيا في ديسمبر 1950 (العدد 243).

في هذه الجريدة واصل سليمان الجادوي عمله الصحفيّ الملتزم للدّفاع عن حرية التعبير بما تتضمنه من رغبة صادقة في الإصلاح والإسهام في رقيّ الشعب التّونسيّ¹. وكان من الطّبيعيّ أن يفرّد للإسلام مكانة رفيعة في جريدته، إذ عبّر في مجمل مقالاته، عن قناعته بأنّ المراوحة المتذبذبة بين التقليد المتزمّت، والتّجديد المفرط، كانت سلبية النتائج، لأنّها أوجدت نوعا من «المهادنة» وفّرت للسّلطة الاستعماريّة عديد الفرص لتمير سياستها الانتهازيّة الاستبداديّة، ولذلك اختار الجادوي أن يكون محافظا مستتيّرا، ومصلحا وطنيا في قضايا أمّته². وقد اهتمّ اهتماما ملحوظا بالتّعليم الزيتوني، وبمسألة تعليم المرأة، وبمشكلة الأحباس، وبغيرها ممّا سنذكره في أوّله، ويمكننا القول إنّ الجادوي عرف كيف يوفّق بين ثوابت مجتمعه ومتحوّلاته طوال النّصف الأوّل من القرن العشرين. وسيدرك قراء هذا الكتاب، في فصله الثّاني المتعلّق بمنتخبات من مقالات الجادوي، ما نغنيه. ونكتفي هنا بذكر أبرز المحاور التحليليّة والنّقديّة التي وردت في «مرشد الأمّة»، وهي :

- الإسلام دين عمل واجتهاد. وقد أثمر حضارة إنسانيّة استفاد منها الغرب نفسه. ولكنّ الانحراف عن جوهر الإسلام هو الذي أحرّ المسلمين، وسلّط عليهم من كانوا، بالأمس، يتعلّمون منهم شتّى العلوم³.

- (1) انظر «فاتحة» كتابه «الفوائد الجمّة في منتخبات مرشد الأمّة»، ص 11.
- (2) انظر : كتاب «الحركة الأدبيّة والفكرية في تونس» للشيخ محمّد الفاضل ابن عاشور. ص 148، الطّبعة الثّالثة، الدّار التّونسيّة للنّشر، أفريل 1983.
- (3) مقال «الاجتهاد والذكاء»، «مرشد الأمّة»، العدد 38، سنة 1911. انظر : الصّفحات 157-259 من كتاب «الفوائد....».

328.



مرشد الكون

سنة ١٣٢٤
١٩٦

MOURCHED EL- OUMMA

* جريدة علمية سياسية اسبوعية تخدم الملة والوطن *

عدد ٢٢ من الجزء الرابع

العدد الخامس

الاشتراك في مرشد لامة

في الولايات التونسية واكزابيرية وطرابلس الغرب
عن سنة ١٠
للطبعة العلم والجامع لاطم ٥٥
للاستاذة العلية والنظر المصري وفيه المالك العثماني
عن سنة ١٢
في مملكتي الزنجبار وعمان وساير الممالك الاخرى
عن سنة ١٥

احدرة الاعلانات

عن السطر الواحد
في الصحيفة الاولى ٢
- الثانية ١٥٠
- الثالثة ١٥٠
- الرابعة ٥٥٠

Pour tout ce qui concerne
l'Administration et la rédaction
s'adresser à M. SOLIMAN EL-JADOU
56, rue Ben Zied, Tunis.

* المواق ١٢ جانفي ١٩١١ *

ادارة الجريدة

بنهج بن زياد / جندوباية المملكة عدد ٥٦

المراسلات

وسل خالصة جيرة البريد باسم مدير الجريدة
ومحررها السؤل سليمان الجادوي

لا يلتفت لغير المصادات من رسايل النشر
ولا ترد لاه باسنا نشر اول نشر

العنوان المبرق (مرشد لامة)

ندفع قيمة الاشتراك سلفا وجولات لاشتراك
لا لتعدي

الا اذا كانت مصادة من مدير الجريدة وعليها ختم
لادارة

ومن قبل عددين عد مقتركا

Adresse télégraphique :

MOURCHED EL- OUMMA
TUNIS

* تونس يوم الجمعة ١٢ محرم اكرام ١٣٢٩ *

- البدع الضارة والعادات السيئة والتقاليد العقيمة... كلها دخيلة على جوهر الإسلام. والمطلوب من العلماء المسلمين مقاومتها دون تردد، لأنها من أسباب ما آلت إليه المجتمعات الإسلامية من تأخر وتخلف واستعمار¹.

- تقوية الحس الوطني للتحرر كلياً من آفات الخنوع والهوان واللامبالاة².

- نبذ الشقاق والتفاق للتغلب بحق على التفرق والخلاف³.

- التمسك بـ«العروة الوثقى» دينا وديناً⁴. (كان الجادوي من المؤيدين لأفكار جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده ونصيرهما رشيد رضا).

- مقاومة الظلم والتصدي للظالمين⁵. (والجادوي من المطلعين أيضاً على أفكار عبد الرحمن الكواكبي).

- ضرورة تعلم العلوم العصرية، وبالأخص العلوم التطبيقية : الاقتصادية، والتجارية، والفلاحية، والصناعية، والطبية، والهندسية...

- إصلاح برامج التعليم الزيتوني⁶. وقد ساند الجادوي الحركة الطلابية الزيتونية سنة 1910، وتبنى مطالبهم، ودافع دفاعاً قوياً عن الإصلاحات التي تقدموا بها إلى المعنيين بالأمر.

(1) في عديد مقالاته ركز الجادوي على هذا المحور.

(2) مقال «حب الوطن من الإيمان»، «مرشد الأمة»، العدد 37، سنة 1911. انظر : الصفحات 253-256 من كتاب «الفوائد»...

(3) مقال «محكم البرهان في الرد على حزب الخذلان»، «مرشد الأمة»، العدد 77، سنة 1920. انظر : الصفحات 484-490 من كتاب «الفوائد»...

(4) مقال «هل إلى الرقي من سبيل ٩»، «مرشد الأمة»، العدد 34، سنة 1911. انظر : الصفحات 242-246 من كتاب «الفوائد»...

(5) في معظم مقالاته ركز الجادوي على هذا المحور.

(6) كان الجادوي حريصاً على نشر مطالب الحزب الحر الدستوري في «مرشد الأمة» ومن بين هذه المطالب دعوة الوطنيين إلى اكتساب موجبات الرقي التمدني في شتى مجالاته.

(7) مقال «حديث الإصلاح بالمعهد الزيتوني»، «مرشد الأمة»، العدد 22، سنة 1910. انظر : الصفحات 185-189 من كتاب «الفوائد»...

3

الحمد لله

٢٤ جمادى الأولى ١٣٤٢



جريدة (أبو نواس)



حضرة جناب مسيو مدير إدارة الداخلية العلامة بالولاية التونسية
 بعد قد مر وادى ان خدام باني المصالح علم ان جناب بامد ان جريدة هزلية ادب
 في العنصر اعلاه كندا امة رعا كبر سنة ١٩١٢ وشيها من ان تعطيل العام لل
 العربية امة الزهرة والبيج اللزجة وسيم الجريدة المذكورة اريد وبس موشة
 باداركم الرواية والسلام حرره

لجان البعلج دوى

Monseigneur El Jadidi, à Monnaie
 le Directeur Général de l'Intérieur

Il expose qu'il avait fait paraître avant 1912 un journal humoristique, littéraire, sous le titre de "Abou Saouass".

Il fait remarquer que ce journal avait été suspendu, mais tous les journaux à l'exception de la "Zohra".

Il ajoute que toutes les pièces nécessaires se trouvent dans le dossier du journal en question ou dans celui de "Archives de Omma".

Il avertit de faire paraître le journal susvisé.

25 janvier 1924.

طلب الترخيص للإصدار (أبو نواس) بخط الجادوي

م. س. س. س.
 م. م. م. م.
 م. م. م. م.
 5.2.24

8/

- وللجادوي محاور أخرى خصّص لها عديد مقالاته في «مرشد الأمة»،
من بينها :
- القضاء الإسلامي في تونس : حذر من تدخل الأجنبي في هذا
القضاء¹.
- المرأة التونسية : عارض آراء قاسم أمين وأكد أن مسألة التّخلي عن
الحجاب لا يمكن الأخذ بها إلا في أمة تحكم نفسها بنفسها، أي متحررة
مستقلة. وأما مسألة تعليم المرأة فهي «مستحبة» لأنها «من المتممات»
ولكنها لا تصح إلا بعد تعليم الرجل أولاً².
- ومجمل القول في هذه المقالات أنها تتميز بحيوية سجالية أصيلة،
غايتها، كما أرادها صاحبها، «خدمة الملة والوطن». وقد أدّى الجادوي
هذه الخدمة بوافر الصدق والنزاهة والشجاعة.
- ومن المفيد أن نقدّم - لمزيد الإلمام بشخصية سليمان الجادوي -
شواهد نصيّة أخرى على ما سبق لنا ذكره، تتعلق برودوده على سدة
الأمر الواقع في عصره :
- في ردّه على القائلين بأن غاية الاستعمار هي امتلاك الأراضي
وحسب، كتب : «إن قوّة الممالك قائمة على المصالح التجاريّة أكثر منها
على رغبة امتلاك البلاد لغرض الفتح والاستعباد الصّرف»³. ممّا يدلّ
على أنّه كان موضوعياً في فهمه لدور الاقتصاد في حياة أيّ شعب يطمح
إلى التّمدّن والرّقيّ.
- وفي ردّه على لويس ماشويل (Louis Machuel) الذي نصّبته الحماية
مديرا للتعليم، فإذا به مديرا للتّجهيل، كتب : «إنّه يغلّق في أوجه أبناء
الأهالي أبواب المعرفة، حتّى أنّه لا يوجد في مكتب الصّنائع الموسوم
باسم رئيس الجمهوريّة إميل لوبي (Emile Loubet)، المعهد الفنّي الحالي
-
- (1) مقال «حديث مع جريدة التّونسيّة»، «مرشد الأمة»، العدد 22، سنة 1910. انظر :
الصفّحات 189-194 من كتاب «الفوائد»....
- (2) مقال «تعليم المرأة ورفع الحجاب»، «مرشد الأمة»، العدد 42، سنة 1911. لم يدرجه
الجادوي ضمن منتخب كتابه «الفوائد»....
- (3) انظر : مقال «الصّناعة»، ص 48 من كتاب «الفوائد»....

بالعاصمة، إلا 16 نفرا من المتعلّمين التّونسيّين، مع أنّ عظيم نفقاته من الكيس الصّادقي (إشارة إلى ما تقوم به إدارة الحماية من استغلال متعدّد لأحباس التّونسيّين).

أمّا سدّ المكاتب (المدارس والمعاهد) وقفّلها بصخور الاستبداد، فحدّث عن مدير المعارف ولا حرج. فإنّه أبدى من أفانين حرمان التّونسيّين من المعرفة ما لا يقدر عليه نيرون الجبّار، ولا تيمور الظّلم... ممّا يعني أنّ الجادوي كان مدركا لأهميّة تعلّم الصّنائع بمختلف مجالاتها التّطبيقية.

- وفي ردّه على فكتور دو كارنيير¹ (Victor De Carnières) كتب على لسانه، ساخرا منه : «باسم الكنيسة، نحن دوكارنيار، قيصّر الإجحاف، وإمبراطور الاعتساف، نأمر حزب الخراب من أتباعنا وابنا تريبون (Tridon) [مدير جريدة المعمّرين] بنشر دعوتنا وتنفيذ فصول لائحتنا...» يسمّيها الجادوي لائحة دوكارنيارية، ومنها :

- «الفصل الأوّل : جدّوا إخواننا في وصف العرب بكلّ معرفة. (هذا ما دأبت عليه صحافة المعمّرين).

- «الفصل الثّاني : اعملوا على صيرورة أراضي هذه الإيالة إلينا، ولو بطريق الاغتصاب. وللجادوي، كما ذكرنا مقالات حامية ضدّ محاولات الاستعماريّين لافتكاك أراضي التّونسيّين.

- «الفصل الثّالث : لا يلقّن العربيّ المعارف العصرية مخافة أن يزاحمنا في أبواب الارتزاق من صناعة وفلاحة وتجارة...»².

-
- (1) مقال «استقبال تونس للعميد الجديد»، «المرشد»، العدد 13، سنة 1908. انظر : الصّفحات 44-48 من كتاب «الفوائد...».
 - (2) هو كبير المعمّرين ومن عتاة الفرّسة، ولد سنة 1849 بشمال فرنسا، واستقرّ بالبلاد التّونسية لتحقيق أطماعه الاستيطانية، فاشتغل بالفلاحة، ودخل السياسة بأساليب انتهازية مكّنته من الهيمنة على الحجر التجاريّة، ثمّ من الوصول إلى رئاسة اتحاد العمال الفرنسيّين. وقد أسّس وأدار بعض الصّحف الاستعمارية، من أبرزها «تونس الفرنسية» (La Tunisie Française) و«المعمّر الفرنسي» (Le Colon Français).
 - (3) مقال «جريدة المعمّر الفرنسي» «المرشد»، العدد 22، سنة 1907. انظر : الصّفحات 71-77 من كتاب «الفوائد...».

وقد بدأ الجادوي مقاله هذا بقوله : «يريد دوكارنيار منا أن نهاجر، أو نموت ممقوتين، ولولا عدالة الجمهورية ذات الشَّان [يمزج المدح بالسَّخرية] لاقترح ذبحنا بمدية الاغتيال، كما فعل رهبان الإسبان مع مسلمي الأندلس» !

وتماذى الجادوي في نقده الصَّريح الحادّ لجميع الانحرافات الرَّجعية والاستعمارية، فناله من الأذى ما زاده يقينا بأنَّ الصَّحافة الحرّة هي سند شرعيّ للحركة الوطنيّة. ولذلك دعا إلى «رفع الضَّغط على القلم في ما يكتب». وفي نفس مقاله أكّد «لابدّ لإدارة المعارف من نشر العلوم بين الطبقات الأهليّة»، وأيضا «تعديل الضَّرائب الدَّولية [دولة الحماية] عسى أن ينقص كيلو من قناطر الهمّ المقنطرة على كاهل الشَّعب التُّونسيّ» ! هذا بعض ما كتبه سليمان الجادوي منذ حوالي مائة سنة.

في ليلة الاثنين 19 نوفمبر 1951، توفّي الشَّيخ سليمان الجادوي. وفي صباح الثلاثاء، علم قرّاء جريدة «النّهضة» أنّ الصَّحافة التُّونسيّة «فجعت بوفاة الكاتب الكبير، صاحب «مرشد الأمة»، الَّذي عرفته الأوساط التُّونسيّة من أوائل الصَّحافيين الَّذين كافحوا زمنا طويلا في سبيل القضية الوطنيّة بأقلامهم وأموالهم وتفكيرهم. وقد وافاه الأجل المحتوم فجأة بمنزله بحمام الأنف، وشيّعت جنازته في موكب خاشع بأصدقائه وعارفي فضله ونخبة من رجال الأمة وأعيانها».

وبعد أيّام قليلة من وفاته، كتب عنه نور الدِّين بن محمود، في الأسبوع (العدد 3 - ديسمبر 1951) شهادة مؤثّرة، ذكر فيها أنّ الجادوي كان «من قرناء الثَّعالبي ومن مؤسّسي الحزب الحرّ الدِّستوري سنة 1920»¹. وأنّه

رأى شخصاً يقرأ في كتابه «المرشد» في سنة 1909. انظر :

(1) مقال «من أجل الصَّحافة العربيّة»، «المرشد»، العدد 24، سنة 1909. انظر : الصّفحات 80-84 من كتاب «الفوائد....».

(2) وكان من المشاركين في النشاط النقابيّ التُّونسيّ، كما هو موثّق في «سجلات الحجرّة التجاريّة الأهليّة» (المهن التّقليديّة، دورة 1932)، إذ تمّ إقصاؤه منذ سنة 1920 لاعتباره من المعارضين البارزين لإرادة الحماية. وهذا ما أكّده تقرير الكاتب العامّ للحكومة، ثمّ رسالته إلى المقيم العامّ الفرنسيّ، المؤرّخة في 24 نوفمبر 1920، وما تلاها من تقارير ورسائل أخرى محفوظة في الأرشيف التُّونسيّ. انظر : «النَّخب الاقتصاديّة التُّونسيّة في عهد الاستعمار الفرنسيّ، الحجرّة التجاريّة الأهليّة مثالا

«جاهد بماله وعلمه وعمله وقلمه، وضجّي في سبيل الوطن، فأوذي، وعطّلت صحفه، وعُلّقت به القضايا، وزُجّ به في السّجن».

هذا هو سليمان الجادوي الذي دعا مواطنيه إلى مقاومة التّجنّيس والفرنسة سنة 1911 :

«أيّها الشعب العزيز، حافظ على دينك، وقوميتك، وجنسيّتك، وإياك أن تتجنّس ولو وعدوك بإنزال مائدة من السّماء، فإنّك إن فعلت ذلك فستجني على دينك ومجدك، وعلى الأجيال القابلة من نسلك، وتتسبّب في قلة التّرحم عليك، حيث أضعت لهم جنسيّتهم، فكانوا لا على هؤلاء، ولا إلى هؤلاء!...»¹

وهو ذاته الذي قال مرارا على ملا من عتاة الاستعماريّين : «أيّ حكومة تضايق حريّة الصحافة، فهي تخشى المباحثة [الحوار]. ولذلك فهي ذات شبهة!»².

هذا الرّجل الحرّ النّزيه استحقّ، في حياته وبعد وفاته، وفاء الأوفياء من عارفي فضله، فذكروه كما نذكره اليوم بخير ما يذكر به أمثاله من الوطنيّين.

وممنّ نوّه به، الشّيخ محمّد الفاضل ابن عاشور، فقد كتب عنه في كتابه «الحركة الأدبيّة والفكرية في تونس» : «الشّيخ سليمان الجادوي، صاحب جريدة مرشد الأمّة، روح كتابته روح إسلاميّة وطنيّة. ينهج في تحريره نهج التّذمّر والاحتجاج، ويحتدّ في مهاجماته ويتنمّر، ويستقصي الحجج لموضوعه من كلّ وجه ولو كان على غير مبدئه، قصدا إلى إفحام الخصم. ويبدو في طريقته الثّبات على المبدأ إلى حدّ التّطرف واليقين المطلق في النّظرية التي يدافع عنها. وأكثر مقالاته نقد لمواقف رجال الحكم وتصرفاتهم، بمقياس الخلق الدّينيّ والمبدأ الوطنيّ. وأسلوبه البياني عربيّ متين، يستمدّ من الثّقافة الدّينية، ويبالغ في تشنيع الصّور،

1920 - 1956»، إعداد خميس العرفاوي. جامعة تونس الأولى، كلّية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 1993. (رصيد المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية).

(1) انظر : ص 717 من كتاب «الفوائد...».

(2) هي قولة للمعجمي الفرنسي لاروس، انظر : ص 345 من كتاب «الفوائد...».

ولا يقتصد في كشف الحقيقة على ما يتصور فيها من شرّ [...] إنّه فارس الدفاع في سبيل الفكرة الدستورية الذي لا يتراجع ولا يلين¹. وكتب عنه حمّادي السّاحلي في كتابه «الصحافة الهزلية في تونس»: «عرف الشيخ سليمان الجادوي برباطة الجأش، وقوّة الإرادة، والثبات على المبدأ، لم تثبّط المحن عزمته، ولم تفتّ في ساعده...»².

كما كتب عنه الدكتور محمّد اليعلاوي في كتاب «أعلام من جزيرة جربة»: «كان الشيخ الجادوي افتتح بالنضال الوطني بواسطة الصحافة الجريئة الشّجاعة المقدمة، جهاد متواصل وعزم لا يعرف الفتور والملل، وأن تعطيل الجرائد والمجلات، ومحاكمة أصحابها، ومعاقتهم بالسّجن أو بالغرامات الباهضة، ينبغي أن لا يحولا دون إبلاغ آراء المصلحين، وتوجيهاتهم، ومواقفهم إلى كافّة أفراد الشعب...»³.

وسيجد قراء هذا الكتاب في فصله الثالث مقتطفات أخرى ممّا كتب عن الشيخ سليمان الجادوي بأقلام ممّن عاصروه وعرفوه، وأيضاً ممّن أرخوا سيرته ومسيرته بعد وفاته.

خمسون سنة التزاما ونضالا متواصلًا في سبيل وطنه.

خمسون... ولم تزل ذكراه باقية يانعة.

طبيب الله ثراه.

(1) الطبعة الثالثة للدّار التونسية للنشر، أفريل 1983، ص 148.

(2) أعلام من جزيرة جربة، مداخلة في ملتقى الشيخ سليمان الجادوي، الدّورة الأولى بأجيم (جربة)، أفريل/ ماي 1993.

(3) مداخلة صاحبها في ملتقى الشيخ سليمان الجادوي، الدّورة الأولى بأجيم جربة، أفريل/ ماي 1993.

تعريف لكتاب «الفوائد الجمّة في منتخبات مرشد الأمة»

من هذا الكتاب الذي أشرنا إليه إشارات متفرقة في تقديمنا، اخترنا مجموعة من المقالات الواردة فيه ليطلع عليها القراء باعتبارها نماذج قيّمة ممّا كان صاحبها يكتبه طوال سنوات 1906-1925، وحتى يستكملوا من خلالها ملامح شخصية هذا الصحافي الرائد.

ولذلك رأينا من المفيد أن نقدّم «وصفة» تعريفية لهذا الكتاب النادر الذي لم يعد في متناول القراء إذ لم تطبع منه، منذ سنة 1925، إلا طبعة واحدة، على نفقة المؤلف في المطبعة التونسية (57 نهج سوق البلاط بتونس). وقد نفدت هذه الطبعة منذ مدة طويلة.

هذا الكتاب متوسط الحجم، مجلّد الغلاف، يضمّ 789 صفحة، موزعة - بعد الفهرس والفاتحة والإهداء - كما يلي :

- الجزء الأوّل : منتخبات من جريدته «المرشد»، بدأها بمقال «القوة في الاتحاد» (ص 17)، وختمها بمقال «رأي جديد في التقليد» (ص 125).

- الجزء الثاني : منتخبات من جريدته «مرشد الأمة»، بدأها بمقال «حياة اللغة العربية» (ص 125) وختمها بمقال «سوء التصرف الإداري» (ص 772).

- الخاتمة والتّقاريط : من ص 775 إلى ص 781.

وقد أهدى الشيخ سليمان الجادوي كتابه : «إلى الشعب العزيز، ثم إلى متتوريه.. والمخلصين له» (ص 12).

وفي الصفحة الموالية، كتب تحت صورته :
«لما استحال بأن أكون مع الجميع مدى الزمان
أبقيت من ذاتي مثالا قائلا هذا فلان
خدم الصحافة مرشدا، وكفى العيان عن البيان».

وفي «الفاتحة» بين أنه «نظرا لرغبة البعض من ذوي المكانة العالية في العلم، وإجابة لخطرات الحرص منا على تخليد أثر يجمع ما تفرق نشره من فصول «مرشد الأمة»، ومختارات سلفه من قبل «المرشد» من كل ما ترجحت إفادة حفظه من نثر وشعر...» (ص 11)، فقد ضم كتابه 190 مقالا، معظمها بقلمه، وقليلها بأقلام غيره من كتّاب وأدباء وصحافيين. وقد فعل الجادوي خيرا عندما أصدر كتابه الذي يعتبر اليوم مرجعا تاريخيا نادرا في الحركة الوطنية التونسية على المستويين : السياسي الاجتماعي، والصحفي الثقافي.

ومن خلال مجمل مقالات الجادوي المنشورة في كتابه، يتضح لنا أنه من رواد كتّاب المقال في صياغته : السياسية الاجتماعية، والصحفية الأدبية. إضافة إلى ما يتمتع به من طرافة متميزة أيضا بجديتها الفائقة. ومن دلائل جديته أن الإدارة الاستعمارية لم تستطع أن تطبق طرافته وسخريته في جريدته «أبونواس».

وقد احتفى الجادوي بمن عرفهم من المصلحين والمناضلين¹، ومنهم بعض زملائه الصحافيين، فنشر صورهم وعرف بهم كما يلي:
- «صاحب المآثر الوزير خير الدين باشا مؤسس الأنظمة التونسية والمصلح الكبير».

1) كتب : «واتماما للفائدة التاريخية أضفنا إلى الكتاب رسوم [صور] بعض رجال الإصلاح من الشعب التونسي الواضعين أساس نهضته التمدينية والمؤيدين لها طورا إثر طور، من وزراء وزعماء وصحافيين وكتّاب ومفكرين، حتى يكون أثر المصلحين خالدا، ومصدر الإخلاص الوطني عنى توالي العصور ماثلا شاهدا»، ص 12 من «الفوائد....».

- «أبو النهضة التونسية الثاني، فقيد الوطن السيد البشير صفر».
- «الأستاذ الشيخ عبد العزيز الثعالبي مؤسس الحزب الدستوري والزعيم الأكبر في الحركة الوطنية».
- «السيد أحمد الصافي الكاتب العام للحزب الحرّ الدستوري، وأحد أعضاء وفوده البارسيّة الأولى والثالثة، ومن المخلصين في المسألة التونسية».
- «السيد محيي الدين القليبي الكاتب العام الثاني للحزب الحرّ الدستوري، والرئيس للهيئة التنفيذية، ومن حملة الأقلام الذي لا يلحق في مضمار، ولا يُشقّ له غبار، حازما مخلصا».
- «السيد حسين الجزيري صاحب "النديم" الأغرّ ومؤلف كتاب "رياض الظرفاء"، وهو من النوابغ الذين امتحنوا في سبيل الوطنية، وجمعوا من الإفادة في النثر والشعر».
- «السيد أحمد توفيق المدني مؤلف "سفر تقويم المنصور السنوي"، والعضو العامل في الجامعة الإسلامية، وأحد أعضاء الوفد الدستوري الباريسي الثالث. كاتب تحرير».
- «السيد الطيّب بن عيسى صاحب جريدتي "المشير، والوزير"، أحد رجال النهضة القلمية العاملين».
- «السيد البشير الفورتي صاحب جريدة "التقدم" اليومية، ومراسل بعض الصّحف الكبرى في الخارج، وأحد أعيان متطوعي الجامع الأعظم، وطني صادق».
- وقد حرص الجادوي على نشر مجموعة من القصائد لبعض الشعراء المعروفين في البلدان العربيّة والإسلاميّة.
- ومما نشره لهم في كتابه :
- «عبر الأيام» لحافظ إبراهيم.
- «وقفة عند قصر شراغان» لمعروف الرّصافي.
- «صوت الحرّيّة» للشاعر التركي نامق كمال، تعريب محيي الدين الخياط.
- «يا أمّتي» لفؤاد الخطيب (في نصرة الجهاد الليبي).

- «هي الحقيقة» لجميل صدقي الزهاوي.
وفي خاتمة كتابه، كتب: «ما علينا إلا أن نعمل ونثابر بإخلاص وصفاء،
فإن أنباء الإصلاحات التي نحن في أوانها الآن (1925) منذرة
بالجفاء...» (ص 776).

وفي هامش خاتمته، كتب: «كان في الحساب ضمّ منتخبات جريدتنا
«أبو نواس» الهزليّة لهذا المنتخب، ثم رأينا إفراده بجزء خاص، مع
إضافة القسم الفكاهي من «المرشد» و«مرشد الأمة» له (ص 780) ولكن
الجادوي لم يصدر ما أزمع إصداره...

وإثر صدور «الفوائد الجمة في منتخبات مرشد الأمة»، لقي أوفر
الترحيب من عديد الأدباء والصحافيين والسياسيين الوطنيين. وقد
خصّه الشاعر الهادي المدني بقصيدة مؤثرة، نقتطف منها ما يلي:

«يا من يطالع هذا الكتاب بشراك بشرى
رأيت دهرًا عليه الزمان أسدل سترا
كيف انقضى وأتت بعده الحوادث تترى
رأيت ما قد أتاه الطغاة ظلما وقهرا
وكيف أودعوا الحق والمساواة قبرا
وكيف كان جهاد الكتاب إذ ذاك وعرا
وكيف تحمل منهم دور العزيمة إصرا
فلم يزد هم إلا عزما وجداً وصبرا»¹

كما خصّه أمير الشعراء الشاذلي خزندار بقصيدة لم ينشر منها
الجادوي في آخر صفحة² من كتابه غير هذه الأبيات:

«لئن جاد شعرك فالجادوي مثال الإجداد فيه بدا
إليك «الفوائد» منه التي فتحنا القلوب لها واليها
وحسبك بالصّحفي قيمة إذا كان للأمة مرشدا».

(1) انظر القصيدة كاملة في «الفوائد الجمة في منتخبات مرشد الأمة».

(2) ذكر أنها وصلته والكتاب جاهز للطبع.

وكتب «الخيّام»¹ تحية اعتراف بفضل «الأستاذ الشيخ سليمان الجادوي على ما قام به من جلائل الأعمال نحو الأمة التّونسيّة التي لا تتساه إلى الأبد» (ص 778).

وها قد آن للقارئ الكريم أن يطّلع على ما سعيينا إلى اختياره من مقالات الشيخ سليمان الجادوي.

الجيلاني ابن الحارثي

تونس في 16 أفريل 2006

(1) وعنه كتب الجادوي: «حاضرة» الخيّام «التأبغة المعروف لدى قراء الصّحف الوطنيّة بذلك الإمضاء» (ص 776). وهذا الكاتب هو صاحب مقال «الأمثال السّودانية» المنشور في «الفوائد...» ص 715.

من مقدمة «الفوائد الجمة في منتخبات مرشد الأمة»

...ولدت حركة التطور التمديني التي نحن في حلقة من حلقاتها في الشعب التونسي أواخر القرن المنصرم، أي حوالي سنة 1266 هـ (1849 م) بسبب مصلح انتظم في سلك حكمها الاستقلالي المثقل بكوارث الإطلاق، ومصائب الإرهاق، طبق ما أشرنا إليه آنفا، وجريا على قاعدة السنن الكونية من أن المصلحين في الأمم، هم كأصحاب الشرائع السماوية في القيام بإصلاح العائلة البشرية، ومقاومة الفساد الذي يتولد من الإهمال، وتقادم عهد الإنسان بالتكاليف...

دبّ ناموس الإصلاح في هذا المحيط منذ ذلك التاريخ بدخول رجل الأمة التونسية، وإن شئت قلت أحد رجال العالم الشرقي الواضعين أساس نهضته الأخيرة، وأعني به الوزير خير الدين باشا بتوليته قسما بوزارة الحرب بالدولة الصادقية، ثم تدرّج لوظائف أخرى، كالكمسيون المالي، إلى أن ارتقى لمنصب الوزارة الكبرى سنة 1290 هـ (1874 م) حيث كان رحمه الله تعالى باذلا قصارى وسعه في إدخال النظام التمديني على كيان الدولة المتزعزع بالإطلاق، والمُخرب بسوء التصرف الفردي، معلنا قبول الإرشاد وتبادل الآراء المعينة على النهوض، ومفسحا مجالا لأخذها وإعطائها حتى كان فراغه من شؤون وظيفه عامرا بالعلماء

والمفكرين، تطلباً منه للمؤازرة على المصلحة العامة، ثمّ تعليمها لها، وتمرينا عليها، وإرساخاً لقدمها في النفوس...

ومن ثمّ أخذت فكرة الشّعور بالواجب الاجتماعي الذي كان لا يُعرف له معنى، ولا يُدرك له قبل ذلك العهد مَبْنى، يتوسّع شيئاً فشيئاً، حتّى ازدهرت المملكة في أيّامه، وأخذ التّطوّر السّياسي يظهر عليها، وامتدّ رواق الأمن على أرجائها إلى الحدود. ولكن من سوء طالع هذا المحيط، أن كانت أيّام حكمه قصيرة فيه، باستفحال داء الدّسائس حول أخطاره المنتجة وتغلّبها عليه، فاضطرّ إلى ترك الوزارة سنة 1294 هـ (1877 م) ثمّ مبارحة المملكة نهائياً سنة 1295 هـ (1878 م) قبل أن تتأيد أمانيه... وهو جرم يتقاسمه ذلك الجيل المرهب بالإرهاب الفردي، والمثقل بآثام حواشي حكمه الحالكة. ثمّ علماؤه أيضاً الذين كانوا في سجال التّسابق على القريبى وأيّهم أكثر نوالاً فيه، وذلك حسبما يستفاد من مدائحهم وقصائدهم التي تزري بالمعلّقات العشر. وكما لبعضهم - عفا الله عنهم - الذي استفرغ كنانة القواميس اللغويّة من ألفاظ المديح، وقلّدها عقوداً قريضيّة - يسجد لها النّابغة - لرجال ذلك الدّور الذي ما كتب عليهم التّاريخ إلّا الآثام، بحيث لم تجد لهم - سامحهم الله - تحرير شكوى حال، أو خوف من مآل، أو انتقاد ذي ظلم وإطلاق، أو ما يدعو إلى التّعلّق بمصلح ولو يفضي إلى قطع الأعناق..

نعم بارح المملكة ذلك المصلح العظيم بعد أن ترك فيها تطوّراً سياسياً، ونظماً دولياً لم يزل بعضه مساراً عليه إلى اليوم، رغم التّطوّر الاحتلالي الذي يزعم أنّه أتى بكلّ شيء، بحيث لو استطلال به المقام مؤازراً أو غير مؤازر لأبقى بها من الأساسات التّمدينيّة ما تركه محمد علي باشا بعواصم بلاد النّيل.

من ذلك تفريق السّلط وإحياء الشّورى بإجراء الدّستور المعروف بعهد الأمان حوالي سنة 1277 هـ (1861 م) الذي تفرّع عنه تأسيس المجالس المعبر عنها بالجنايات، فسرت فكرة الاستشارة في الشّؤون العامّة بين أفراد الأمّة، واستلانت لمشاهدة ذلك عواطف الإطلاق الفردي الذي كان

يجمع في مجلس حكمه الواحد قضايا مختلطة كدين يحجة، وطلب بذكر، وجروح وقصاص..

ومنه أيضا نظام الكلية الزيتونية والتعليم الديني بها، وتأسيس التعليم العصري بالمدرسة الصادقية التي لم تنتج نظائر لتلامذة عهده إلى اليوم، ثم قانون الإشهاد، أي العدالة، المفقود النظير ضبطا وإحكاما، وكرتيب المحاكم الشرعية، والأحياس، والتراتب البلدية والإدارية والتي لم تزل بارزة ومشارا إليها بالأنظمة الخيرية حتى الآن وإن أدخل على بعضها من التقيح لكنه لم يفقدها مزية عدم الاستغناء عنها أساسا واهتداء.

وكذلك النظام الفلاحي واليد العاملة فيه، فإنه أخذ على عهده من التطور وضع الأساس في شكل لم تكن غنية عنه إدارة الفلاحة في سلوكها اليوم، كقانون شركة العمل الزراعي المعروف (بالخماسة)، وكقانون الإنزال للأراضي الأميرية الذي يظهر منه زيادة على تلك الإفادة التعميرية، فإنه يرمي به إلى سر غامض قد فسره الزمان بعده، وهو الحرص على تمليك الأرض للمستقرين بها من العربان بوجه بات... وإتماما لفائدة تاريخية نضع هنا نص مكتوب وزير في إنزال أراضي وطن رياح لعامل المكان في ذلك التاريخ وهو :

«إنه بناء على ما قرره الكمسيون المالي (المروؤوس لخير الدين) في طرق إنزال الأراضي الدولية بوطن رياح، فإن العمل يكون حسبما يأتي : إن الماشية في البراري تكون 250 مرجعا، وإنزالها يكون 35 ريالا، وإن الماشية من أراضي الشراب تكون 225 مرجعا، وإنزالها يكون 40 ريالا، وإن تخلل الأرض جندل أو دمار، فيطرح من الأرض، ولا يكون المطروح أقل من الربع، وأما الجبال فتبقى على حالها».

هذا وقد هجعت فكرة التطور التمدني إثر انفصال أبي النهضة التونسية عن مركزه، ومبارحته للمملكة التي ضاقت عن معارفه حيناً من الدهر، انتهى بنصب الحماية الجمهورية عليها سنة 1299 هـ (1881 م) باسم الرضاء وتحت عوامل القبول والتسليم، وذلك بمعاهدة باردو، ثم ذيلت بأخرى تعرف بعقد المرسى حوالي سنة 1302 هـ (1884 م) يأتي نص العقدين عقب هذه المقدمة.

وهنا يظهر أنّ القلم يأبى جحد ما نتج عن إيقاظ هاجعة الأمس بسبب التّراحم الجديد في المعترك الحياتي حول طلاقه الفكرة التي قدم بها المحتلون في بادئ أمرهم الباسم عن إخاء ورخاء... جريا على قاعدة أنّ الأريج إذا التصق بغيره فلا أقلّ من أن يترك فيه شذاه إن لم أقلّ يستحيل إليه إذا صدّقنا صحّة الانجذاب الطّبيعي في متحدّي المزاج... من ذلك حرّية النّشر التي لم يكن لها نظام قبل العهد الاحتلالي، ولا قانون يعلم به الفكر حدّه في النّقد، أو غاية يقف دونها العموميّون فيما يبدوونه نحو الصّلح العام من الآراء والإرشاد، بل كانوا تحت رحمة الإطلاق وإرادته القاسية عقابا وموجبا، وهذا ممّا لا يستدلّ عليه بأكثر من قضيّة الشّيخ بوعلاق القائل لقصيدة مخاطبا بها الأمير إذ ذاك والتي نصّ مطلعها :

بأشر بنفسك أمر الملك سيّدنا فإنّ تكليف بعض النّاس تمهيل
فإنّه لم يلبث إلّا وأبواب السّجون فتحت له وأصبح تحت أقفالها وفي
أغلالها لغير أمد معيّن، وبلا حكم ولا سؤال، مع جلالة قدره، وبعد صيته
العلمي، ومكانته في الدّين، حتّى أغمرت الأفكار بالمخاوف، وطوّقت
بالمتالف، وكذلك يفعل الظّالمون.

ولم تكن قبل الاحتلال من صحيفة تنشر عدى الرّائد الرّسمي
المؤسّس سنة 1277 هـ (1860 م) وكان من جملة حسنات ذلك المصلح
العظيم، ومسحة من مسحات المدنيّة الحكوميّة على عهده، والذي قال
في تقرّظه أستاذ القريظ، الشّيخ قبادو ما نصّه :

يا طالبا للخبر الصّادق	أنعم بهذا الرّائد الفائق
يأتيك بالأخبار من نفسها	منتخبا للقائد الفائق
روض من الآداب أزهاره	تحسن للنّاظر والنّاشق
وإنّ بها الخضراء مالکها	دامت به تحمي من الطّارق
يفصح عن فحواه تاريخه	أنبا بخير رائد الصّادق

1277 هـ (1860 م).

(1) يشير إلى الوزير خزندار، وقيل لزروق السّاحل...

هذا وبذكرنا لتاريخ تأسيس صحيفة الرائد التي هي أول صحيفة دورية تونسية، نذكر ما يشعر بتطور القلم التونسي وارتقائه تدريجياً بالقياس على ذلك العهد، وخصوصاً في مناح التحرير العمومية إرشاداً ونقداً، وذلك بما ثبت وأن الصحيفة المشار لها على ضعف مادتها واختصاصها بالشؤون الرسمية، قد احتيج إلى استقدام محرر لها من الخارج، مع اكتظاظ هذا المحيط إذ ذاك بالعلماء لدرجة الترجيح... حتى كان أحد أعضاء (مصلح المملكة) وهو الوزير حسين يعطي الجوائز لمن يجيد في تحريراته بصحيفة الرائد من ميزانه الخاص إلى أن ارتقت نوعاً ما وخصوصاً في الاقتصاديات بقسميها، ثم انفصل المأجور الشرقي عنها، وتولّى تحريرها الوطنيون إلى اليوم.

ولم يكن من عذر لأولئك النحارير سوى الترفع أو الابتعاد عن مواقف السياسة التي يرونها وعرة الولوج، غير آمنة المروج، لكنهم وصموا بما يروى عن أحدهم من كونها بدعة داخلية عنده في قوله تعالى «ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله بغير علم».

مضى ذلك الدور، وتوارث الفكرة أفراد أشربوا حب الصالح العام، وتعلقت بهم رغم الإرهاق الإداري وإفلاله لانتظامهم حيناً بعد حين، كإبعاد العلامة الشيخ السنوسي إثر واقعة الجلّاز الأولى 1302 هـ (1884 م) ومبارحة صاحب «صفوة الاعتبار» نهائياً لهاته الديار، مجبوراً في قالب مختار... ممّا يدعم قولهم أنّ الفكرة الصالحة في الشعب لا تموت، لأنّها على أكمل شبه بالنور الذي يتطلّب مستقراً له من كلّ ملمس صقيل عند انبعائه، وكذلك الفكرة فإنّها إذا خرجت رددت، وإذا رددت رسخت، وإذا رسخت أصبحت كنسخ الرأسخ من رابع المستحيالات... لا سيما إذا تجاوزت حدّ الجمع، أي تعددت مشارقتها، فإنّها وإن لم تثمر من يومها فيستحيل عليها القضاء أبداً. ورحم الله من قال : وإن تكن اليوم كصيحة في واد، فإنّها ستذهب غدا بالأوتاد !

ومن ثمّ انتقلت لهذا الدور الذي تجلّت فيه بوجه عام، والفضل في ذلك لأبي النهضة الثاني وأعني به أستاذنا سيدي البشير صفر رحمه الله

تعالى الذي أرسخ الفكرة العمومية في مدارك تلامذته الكثيرين عند انهياهم على دروسه الدافقة (غيرة وطنية) كانهيال الضمان على الزلزال، والذي نزل البعض منهم لمعترك القيام بأعباء الصحافة الوطنية غير هيابين غضب الإدارة، ولا انتشوا عزمًا تجاه مقاومتها الشديدة التي يلاقونها منها في كل آن وحتى الآن...

ذلك الشهم الفقيد، والوطني الشديد، الذي كان يضيف لحياته التعليمية بالمدرسة الخلدونية عمله التحريري بجريدة «الحاضرة»، وخطبه العمومية التي يقيمها على أساس مقارعة الاستئثار القاسية، حتى ارتسمت في الأفكار شهامة الإصداع بالطلب والصراحة في النقد، وإنزال الوطنية مقامها من الاعتبار. وناهيك بموقف من مواقفه خطيبيا مفصحا عن أخطار المستقبل يوم وضع أساس تكيّة العواجز بين يدي كل من فخامة لوبي (Loubet) رئيس الجمهورية، وجلالة المقدس المبرور محمد الهادي باشا باي، قائلا : وسعوها وسعوها، فإنها ضيقة الأرجاء، قليلة الزوايا، لأن سياسة إدارة الاستعمار اليوم منذرة بالفقر العام... حتى أضمرت الإدارة ما أضمرته، ثم تسارعت لإسناد ولاية سوسة له تحت ستار حب ارتقائه من رئاسة جمعية الأوقاف الضيئلة المحصول، إلى ذلك الوظيف السامي إكرامة لجنابه، وفي الحقيقة إبعادا له عن العاصمة منبع الحركة والنور...

كما لا يجوز للتاريخ أن ينسى حركة الأستاذ الشيخ عبد العزيز النعالي بعد تعطيل جريدته «سبيل الرشاد» وسفره إلى الشرق سنة 1315 هـ (1897 م) ورجوعه منه حوالي سنة 1321 هـ (1903 م) بمبادي حرة وأفكار عمومية واسعة أخذ ينشرها في أرجاء البلاد عن استعداد في قبولها ما عليه من مزيد.

فلم يسع الإدارة إلا حبّ تلافيها إذ ذاك بتوجيه قضية عليه باسم الدين، أملا في إثثار عقده، وإثخان جهده، ولكن لم يختر عزمه، ولا تفرق جمعه، بل كان بعد ذلك كقطب لدني الآراء السياسية، والنصائح العمومية، بما خص به من موهبة التأثير، والمقدرة على الاستنهاض بتيسير، وإن أجمل عمل قام به لهذا العهد، تأسيسه للحزب الحر

الدستوري الذي أُلقت إليه الأمة التونسية مقاليد مسألتها الوطنية عن روية واستبصار.

غير أنه لا يجحد أن تأييده في بادئ أمره كان بانضمام نخب من (الصّادقيّين) الصّادقين الذين هبطوا معه إلى العمل الشّعبي، وفي طالعتهم فقيد الوطن السيّد علي باش حانبه (دفين الأستاذة العليّة)، صاحب جريدة «التّونسي» الذي لا يغفل التّاريخ تدوين عمله، ولا ينسى الشعب التّونسي أيّاديه الغرّاء ما توالى العصور، وتذكر نفيه الإداري من المملكة هو ومن معه إثر اعتصاب التّرنفاي الواقع سنة 1330 هـ (1911 م) ضدّ جور الشّركة ودوسها لحقوق الوطنيّين، ذلك الإضراب الذي كان أوّلًا في بابيه، حتّى اشتدّ وقعه على الإدارة لحدّ الجنون، حيث دام شهرين تقريبًا كانت عربات الشّركة طالعة نازلة مع أسلاكها تنعي الفراغ من الإضراب...

ولولا تداخل الكتابة العامّة باتّخاذ طرق الإجبار مع موظّفيها، والإرهاب لغيرهم، والتّوسّط بمن لا خلاق لهم لا لرضخت الشّركة لإعطاء ما هو واجب عليها من حقوق الوطنيّين المهضومة. ولكن ما الأمر؟ وأنّ (الرأسماليّة) اليوم هي المهيمن على القوّات الحكوميّة والمتصرّف بها في العموم...

ذلك ما تيسّر ذكره باختصار حول وصل حلقات التّطوّر السّياسي والرّقّي الشّعبي بعضها بعض نحو من نصف قرن وسط هذا المحيط النّاهض بسرّ قد سبقت الإشارة إليه، ولم تبق إلّا كلمة عن الطّور الحاضر التي ستكون كخلق غير مفرغة لاتّصالها من جهة بما مضى، واستقبال ما هو آت من أطوار لم تزل في كامن الغيب، ولذلك أقول : إنّه لما كان على كلّ فرد من أفراد الهيئة الاجتماعيّة وجوب القيام بأعمال عموميّة النّفع، ووطنية القصد، وكانوا فيها على تبادل في طرفي ذلك الوجوب كفاية وعينا، وذلك عملاً بحكمة التّيسير في تسيير كلّ لما خلق له، وحتّى تكون المواهب هي التي تقود وحدها إلى مجال القيام بتلك التّكاليف والإتيان بها على الوجه المحقّق الإنتاج ولو تعدّدت الطّرق، واختلفت المشارب في أصل الأخذ بالمسير، لأنّ الضّالّة المنشودة هي

ملتقى السالكين نحوها والعاملين إليها، أي على حد قولهم أن كل الطرق موصلة إلى عرفات... إلى غير ذلك مما تضيق عنه منطقة هذا التحرير بيانا... وحيث كان مقام الصحافة من تلك الأعمال بالمنزل الأسمى إجابة ووفرة إفادة، ولا سيما في الأمم المستضعفة والمغلوبة على أمرها بما خصت به من استفزاز الشعور الكامن، ومن قوة التأثير على الإحساس، وأخص ذلك تكوينها لرأي عام في الشعب الملحق قوة بالسيل العرم الذي لا يصد تياره، ولا يرجع انحداره، والذي لا يكون بدونها أبدا كما هو المشاهد على أقطار مقفرة من النشريات الدورية التي أهلها في ظلام التصرف فيهم لزالوا عن غير شعور وهم ساهون...

لأن الرأي العام لا يجحد احترام جانبه اليوم حتى من ذوي القوآت في ثكناتهم، فضلا عن الطفاة في شرافاتهم، زيادة على شرحها للمضمرات، وحلها للغوامض من الغايات، وكونها داعية الهدوء وركن الوقار، بحيث لا مجال لحصر فضائلها، بل لا موجب للإتيان بالأدلة المقنعة لمن لا يرى فضلها في الناس، لأن ذلك بمثابة من يقيم الدليل على وجود النهار والغزاة مشرقة فيه...

لهذا ولما أسلفنا من البيان بإيجاز، رأى هذا العبد أن يقوم بواجب المشاركة في مجال القيام بالعمل العمومي، ويشاطر من سبقه إليه قلما وتحريرا، تلبية منه لداعي الضمير، وعملا بأثر صادق المدلول فيه، وهو «إن لوطنك عليك حق»... حيث إن الاشتغال بالخويصات مع الاستعداد، جحود للنعم، وأن ترك الواجبات الوطنية العامة مجلبة للمصائب والنقم... فدخله سنة 1324 هـ (1906 م) بعد رفع الضمان على الصحف الواقع سنة 1322 هـ (1904 م) وذلك بتأسيسنا لصحيفة «المرشد» الذي يرى المطالع نخبا من فصولها بين دفتي هذا المنتخب، إلى أن لاقت حتفها ضحية الجهاد الوطني بقرار وزيرى أواخر سنة 1326 هـ (1908 م) يتخلل ذلك الأمد القصير تحمل مقاساة من خطايا، وسجون، وأتعاب، ومحون، علاوة على اللوم والتأنيب الإداري المختلف الأساليب الذي يندر إغفاله في كل أسبوع، نظرا لخرج صدر الكتابة العامة عن تحمل ثقل الصراحة في النقد والشدة في البيان، مستتدة في إجراءاتها القاسية

المنافية للعدالة وللحرية القانونية، على حداثة الرأي العام الوطني بالنشريات الدورية، حتى أن القلم في كثير من الفصول تراه يجنح إلى الخيال، فيكتب من السماء إلى الأرض أو من تحت طبقاتها، أو يجعل هدفه غالبا سياسة فرد من أفراد الاستعماريين تفصيلا من إرهاق الإدارة الخاوي من المستندات ولو القريبة من المعقول جدلا كالمأسوف عليه مسيو دوكارنيار (De Carnières) الذي لا ينكر فضل قساوته الاستعمارية وشططه في أمانيه، وما يكتبه عن الوطنيين بقائم حياته في تأييد الفكرة الوطنية وتأصلها في النفوس، بحيث أن التاريخ لا يكذب إذا عدّه من مؤيديها ومن مكوّني الأحزاب التونسية اليوم، وإن اختلفوا في المقاصد والغايات، لأنه يريد قتلها ونحن ندافع عن حياتها حتى تكون ماثلة القوام. ولا غرابة إن اختلفت الجهود، واتحدت النتائج وجنى المفرطون عكس ما يرغبون...

كانت الإدارة وقتئذ حول ذلك الجهاد الخيالي تتخبط في الغضب حيث تنظر إلى القانون فلا تجد مبررا لمرادها فيه، وترى التحرير فيضيق صدر الإرهاق منها، فتترسل وراءنا وتبدي لنا من التهديد الصريح تارة، والمرمر أخرى، ما أضحكنا يوما عندما عجزت عن الإتيان بدليل ما، حيث قالت لنا بلسان كاهيتها المستعرب... إن هذا الفصل متجسم شدة وأنه يحدث وجعا في البطنص ! فأجبناه بأن ذلك شأن يخص الأطباء...

ثم أسفرت المقابلة عن ابتسام مصفر، أعقبه وداع ! ومن الجدير بالذكر دليلا على جنون الكتابة العامة وقتئذ بأن بلغ بها الشغف بالإعنات لحد أن أمرت صاحب محل كتب على واجهته «المحل الوطني» بإزالة لفظ الوطني أو الوطنية قائلة له أن لا وطنية تذكر، فضلا عن أن تكتب، وبمثل ذلك يأمر المستبدون، فشكرا لهم ثم شكرا...

وهنا رب سائل يسأل هل أن إدارة اليوم هي كالأمس ؟ نظرا لحوادث القضايا الأخيرة أو أن الحركة الفكرية هي أرقى وأكثر احتراما مما كانت عليه في ذلك العهد، رغم بلوغ النشريات الدورية فيه ضعف ما هي عليه اليوم.

فالجواب أن طباع السلطتين يلوح أنها بمعنى تقريبا، غير أن الذي

أدخل مرونة على قناة الإدارة لعهدنا هذا هو الشعور العام الذي سرى في الشعب، وكاد أن يعمّ سائر طبقاته، وذي حيثياته، ولنضرب لك مثلاً، إنّ قضايا الصّحف التي مرّت في ذلك التّاريخ لم يكن لها من شأن يذكر في أيّام المحاكمة والنّشر، ولا تأثير لصدور الأحكام فيها على الهيئة الاجتماعيّة وإن بلغت في الشّدّة ما بلغته، بل كان اعتبارها كسائر الجنح والمخالفات، بحيث أنّ القضية الأولى التي أقيمت على «المرشد» سنة 1324 هـ (1906 م) وصدر الحكم فيها بالعقوبتين لم يحضرها من العموم إلّا النّادر، حتّى أنّ المحامين الذين قاموا بالدّفاع عنه، طلبوا أجر التّرافع، وهم من الرّعماء اليوم.. فسبحان محوّل الأحوال...

وأعجب من ذلك أن تحدث في مجتمعات من الأعيان وقتئذ، بأنّ الحكم كان هيئاً جدّاً، وأنّ من الإنصاف شدّته بالمضاعفة، لأنّنا في نظرهم مجرمون أردنا أن نقيم الدّين في القرن الرّابع عشر، (تغيير منكر وإرشاداً) وهكذا يتحدّث الجامدون¹.

المختارات

(1) راجع فصل : «الشهامة خير من الجبن».

قطرة قلم

الفصل الثاني المختارات

أدعى أولئك أن النسبة الوحيد فيما ذكر هو عدم موافقة الشريعة
المستجدة للعبودية الجاهلية والطبائع أصولها على قواعد العدم
وبواعي الهيئة الاجتماعية. فقالوا: دعتي يستقيم العلم والعرفان
واستدلوا على ذلك بالخرافات، وشيوخ العادات، وحالة الوقت العاض
وقاسوا عليه الزمن العابر وسووا وجه الحقيقة بظلال التورية
والتكليم، ودعوا بذلك مذاهب التخليد والتفليس، وما يعلمون أن
الأرجح وإن أحدث بأفئدة النول يدين ما تشابه منه ابتغاء تلويله.
وما يعلم تلويله إلا الله والرأسعون في العلم لا تأخذ بالفتنة الذين فتح
الله عليهم بآثار معارفه، وأطلعهم على كنوز مخبرات دقائقه وحقائمه
فشيروا من علمه مشروفا، وقادروا الشريعة حق قدرها، وشكروا وراء

قطرة قلم

كثر التساؤل عن أسباب الاعوجاج، ودواعي الانحطاط، وتقاعس الهمم التي ضربت سرادقها بسواحل أبناء الحنفية المستقيمة، واشتد التنازل والتقاؤل في دواعي الانحطاط، فخلط أقوام، وخلبط آخرون، وجعلوا الدين ذريعة لذلك بزعمهم، ومرمى الاستهزاء والتمشدق في أنديتهم، ونسبوا المتمسكين به إلى الجمود والتهور، وأبعدوهم عن إدراك معنى التصديق والتصور. ولنأت بجملة مما يتقوله أهل التمدن الحاضر المارقون مع ردهم بلسان الحقيقة، والرد عليهم بأصول الطريقة الجاهلين بها، لكي ينتبهوا من سكرات أضاليلهم، وينتهوا عن تخطيط أفانينهم، فنقول :

ادعى أولئك أن السبب الوحيد فيما ذكر، هو عدم موافقة الشريعة السّمحاء للمدنية الحاضرة، وانطباق أصولها على قواعد العمران ودواعي الهيئة الاجتماعية، فقالوا : «متى يستقيم الظلّ والعود أعوج»، واستدلّوا على ذلك بالخرافات، وقبيح العادات، وحالة الوقت الحاضر، وقاسوا عليه الزمن الغابر، وسودّوا وجه الحقيقة بغشاوة التّمويه والتّليس، وذهبوا بذلك مذاهب التّضليل والتّدليس، وما علموا أنّ الأراجيف وإن أخذت بأفئدة الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم، لا تأخذ بأفئدة الذين فتح الله عليهم بأنوار معارفه، وأطلعهم على كنوز مخبيات دقائقه وحقائقه، فشرّبوا من عذب مشربها، وقدرّوا الشريعة حقّ قدرها، ونبذوا وراء

ظهورهم ما في بطون الخرافات، ولم يتمسكوا بقبائح العادات، حيث علموا أن ذلك ليس من الشريعة في شيء لما جاء به الدين القويم من مباينة ذلك. ومن درس الكتاب والسنة، وأمعن النظر في فهم الآيات والأحاديث، وعلم زمن سالف الأمة وما كان عليه رجالها المصلحون من التحلي بسائر أنواع الكمالات، والتقدم في مضمار كل الصناعات، وسائر التعليمات عند تمسكهم بأذيال شريعتهم، وسيرهم على قويم منهجها من نبذهم لتأثير المصلحة الشخصية على المصالح العمومية، ويواصلون ليلهم بنهارهم في ترقية أبناء جلدتهم وما يعود عليهم نفعه في دينهم ودنياهم، إذ بذلك أمر الدين، لقول الصادق الأمين، صلى الله عليه وسلم «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» فانت ترى أن الشريعة نفت عنها المؤثر للمصلحة الخاصة، وعدت من كان دينهم التعاون على البر والتقوى، وأمرهم شورى بينهم، وإن أشكل عليهم أمر لا يعلمون الحكم فيه، ردّوه إلى الله والرسول، ولا يكون الشقاق والتنافر بينهم لتحريم الشريعة ذلك «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم» وواقت بمن كان يقوم بما أوجب الله عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن الفحشاء والمنكر ولو بقلبه إذا لم يستطيع بيده أو لسانه حسبما أمر، ومن مواساة الفقير، ورحمة اليتيم، ومواصلة ذوي الأرحام، إلى غير ذلك ممّا هو معلوم من هذا الدين بالضرورة. فمن علم ذلك تبين له بالكاشف أن ما تزلف به أولئك الملحدون، محض افتراء وكذب مبین، أرادوا به وجه الضلال ومرضاة الشياطين، ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره. وإن كنت أتحقّق أن أقاويلهم كصرخة في واد، إذ أعين القوم منهم ومن غيرهم بالمرصاد، ولكن من أين لهم معرفة ما ذكروا، وهل لهم دليل سوى جهلهم، وهل ترى الشمس مقلة عمياء ؟ كلاً ثمّ كلاً، وهذا خلاصة ما تسدّ به أفواه المبعدين.

ولقائل أن يقول : حيث كانت الشريعة المطهّرة تأمر بما ذكر بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإيتاء الزكاة التي هي عبارة عن أخذ جزء من أموال الأغنياء تدفع للفقراء والمساكين لسدّ خلّة فقرهم حتّى لا تصبح عالة بين الناس يسألون غيرهم عن مسكنة، وتحثّ عن التعاون،

الإسلام

ماضيه وحاضره

سنسعى في هذا الفصل إلى تجلية الإسلام الخالص الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين إلى نحو مائتي سنة بعد الهجرة، لأنه قد آن الزمان الذي يجب على كل ذي غيرة إسلامية أن يعمل فيه جهده لإرجاع الحياة إلى أمتّه التي تتنازعها الشبه والشكوك والبدع، حتى أصبحت حيرى بين يدي الحوادث من جهة دينها ومعقولاتها وإحساساتها وعواطفها، وفي حاجة شديدة إلى عقول المثورين من أبنائها. ويظهر لنا أنه يجب على كل مفكر الآن أن يجاهر بفكره، غير خاش لومة لائم. وحرام على كل ذي بصيرة نافذة أن يكتم ما عنده حفظاً لمركزه أو مداراة لرؤساء وظيفته، فقد برح الخفاء وصار من الجبن الأدبي أن يكتم المصلح فكرته في الإصلاح بعد ما تبين له أن الكتمان لا فائدة منه إلا إقرار الداء على سريانه، وما وراء استشرائه إلا البلاء المحقق، والخطر المرهق. وعلام يكتم المصلح فكرته بعد ما ظهر له أن داء الجمود سرى في كل طائفة من طوائف الأمة فأصبح العلماء بما أدخلوا أنفسهم فيه من الانقطاع للأقاويل المعضلة، وفك رموز كلام بعضهم بعضاً أعجز الناس عن رد شبهة، أو دحض فرية، أو إقامة حجة، وقد علمت العامة منهم ذلك فلوت الكشح عنهم وتركتهم وشأنهم، وصار العامة بما وقر في نفوسهم من عجز علمائهم وعدم غنائهم عنهم في

حالة فوضى لا ضابط لشهواتهم، ولا رادع لأهوائهم. ومن أخطر الأخطار أن يستهين العامة بالدين، وسوف ترى عامة الجيل الآتي، ولو دام الحال على هذا المنوال أشد على الهداة من أصعب الملحدین مراسا وأشدّهم بأسا، كما هو شأنهم في أوروبا، وأصبح متورّوا الأمة بما يرونه من حال العلماء وجمودهم على ما لا يتفق مع عقل ولا طبع، مستقلّين في آرائهم، متقاطعين في دعاويهم، لكلّ منهم مذهب خاصّ، فأصبح منهم الملحد البحت، لا يصدّق بيعث، ولا بثواب، ولا بما فوق ذلك من العقائد الغيبية، ومنهم المصدّقون بذلك على صفات كونها في أفئدتهم، واستمدّوها بظنونهم، ومنهم من تراكت الشبهات على أذهانهم، ففاضت على أفئدتهم، فلم يعرفوا لهم مركزا بين الشكوك والحيرة. ومن الناس غير من ذكرنا، وقد جمّد الكلّ على ما عنده بأسا من المخرج، وقنوطا من وجه الخلاص. فما معنى سكوت المصلحين وأصحاب البصائر السليمة الذين يعرفون الحقّ ويكتمونه في أنفسهم ؟ وأيّ جريمة أشدّ عند الله من إمساك أصحاب الأفكار العالية عن الخوض فيما يصلح حالة الأمة في أقدس شيء لديها، مراعاة لطائفة من الطوائف، أو إراحة لنفسه من المشاغبات ؟

إنّا لنعلم أنّ في هذه الأمة رجالا يعرفون الحقّ الصّراح، ويعتقدون أنّ الأمة بخذافيرها الآن ليست على الإسلام الخالص الذي جاء به سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم، وإنّما هي على شكل من الدين، ظاهره الإسلام، وحقيقته تقليد الملل الأخرى، ويعرفون تبعا لذلك أنّ هذا الشكّل لا يعلو عن متناول الشّبه، ولا يخلص من المطاعن التي تعمّ سائر الأديان، ولكنهم يكتمون ذلك مداراة وخشية.

نحن كنّا مثلهم نكتم ما عندنا ولا نفاتح به إلّا أمثالها، ولكنّا رأينا من الكتمان ما لا يجزّ إلّا زيادة البلاء، واستعصاء الداء. وإلى متى وقد جاهر الملحدون بإلحادهم، وصرّح الشّاكّون بشكوكهم، وأعلن المتألّمون عن آلامهم، أفنكتم نحن ما عندنا من قواعد الإصلاح، فيكون الملحدون في إلحادهم، والشّاكّون في شكوكهم أشجع منا في معرفتنا بوجه النّجاة، وإدراكنا لحقيقة الإسلام، وتحقّقنا المنفعة من نشر ما نعلمه.

فنقول والله المستعان :

جاء الدين الإسلامي وفي العالم ملل لها كتب سماوية، ورئاسات دينية قوية، وعلوم وآداب مليّة، وشروح وتأويلات في المعارف اللاهوتية، وكلّ ما يختصّ بالأمور الروحية، وكانت الشعوب دائنة لهذه الملل، وراضية بحمل نيرها، ومتعصّبة لها غاية التعصّب. جاء الدين الإسلامي والنّاس على هذا الحال في مشارق الأرض ومغاربها، فأتى للعقول بشيء من الدين واضح المباني، جليّ المعاني، ظاهر المرامي والمقاصد، قويّ المناهج والمراشد. التفتت له الأمم في بساطته، وسماحته، وإمكان الإلمام بمجموعه في سويعة من زمان. نظرت إلى ما عندها من مسائل ومشاكل، وما شرحت به من مقالات ومؤلفات ركمتها الأجيال الماضية، وشرحتها الأجيال اللاحقة، فجاءت علما وإن كان ثابت الأركان، ومشيد البنيان، مؤيدا بالحجّة والبرهان، ومحوطا من العلوم الجدليّة بأسوار من بيان. ولكن ليس فيه ما تطلّبه النّفس من روح الدين، وأنوار اليقين. فهو بناء لا يتردّد النّظر في فخامته وشموخ بنيته، ولكن للروح من الدين معنى آخر ليس في هذه المباني الشّامخة عينه ولا أثره، فلذلك لم تردّ لاهيا عن لهوه، ولم تردع سفيها عن جهله، ولم تأخذ على النّفوس مسالك الرّعونة فتزعجها إلى النّظام، وتهيب بها إلى السّكينة حتّى أن حفظه الدين أنفسهم، سقطت منزلة الدين من أعينهم، وجلت معانيه عن أفئدتهم، فتركوا لأنفسهم عنان الشّهوات، فجرت بهم في ميادين المنكرات أشواطا بعيدة، وما زالوا كذلك بين التّتويه والحيلة في حال كلّها تصنّع وتكلّف، حتّى جاء الإسلام بتلك البساطة الفطريّة، والطلاقة الإلهيّة، فأنست الأرواح فيه مطلوبه فأهرعت إليها ألوفا وملايين، حتّى دخل فيه من الشعوب المختلفة نحو من مائة مليون من النّفوس في أقلّ من قرن واحد، رغما عن جهل الأقوام وتعصّبها، وصدّ القادة عن مرغوبها. وما زال الإسلام يتوالى حتّى انحرف المسلمون عن صراطهم، فأعقب ذلك جمودهم الذي هم فيه الآن، فبقت بقيّة الأمم في غيابه الغباوة، كلّ جامد على عقيدته، حتّى جاء دور العلم الأوروبي في أوروبا فتلّلت بالنّاس إلى النّظر والفكر، وحثّهم على التّعلّق والتأمّل، ثمّ واجههم

بمقررات العلوم الطَّبِيعِيَّة، وحقائق المعارف الكونيَّة، فاستتارت عقولهم بنور العلم، ثمَّ نظر إلى ما ورثوه من العقائد، فإذا بها مجموع أفكار المتقدِّمين، ومبلغ علوم الأوَّلين، ممَّا أثبتت لهم الفلسفة التَّاريخيَّة، والعلوم الطَّبِيعِيَّة والعمرانيَّة أنَّها معلومات قديمة، عظمتها الأوهام، وقدسَّتْها الجهالة، فاعتبرت كلاماً إلهيًّا، وليست هي إلَّا علماً إنسانيًّا، فنكسوا عن الأديان وكنهها، وعدَّوا الملحق عن درجة العصريين في القوَّة الإدراكيَّة، فقسَّموا حياة الإنسيِّين إلى ثلاثة أدوار : فالدَّور الأوَّل هو دور الدِّين، عاش الإنسان فيه بالدِّين على حسب ما اقتضاه عقله، لم يشكَّ فيها طرفة عين، ثمَّ جاء دور الفلسفة قبل المسيح بنحو عشرة قرون، فحدثت الشُّكوك والشُّبه، فتولَّى الإنسان حلَّها بقوَّة الجدل وسيوف الكلام، وعاش في هذا الدَّور حتَّى ولد العلم الأوروبي قبل أربعة قرون، فدلَّ الإنسان بمعلوماته الحسيَّة على أنَّ الأديان ذات زمانها، وأصبحت تعاليمها لا تغني الإنسان فتيلًا. يقولون ألا ترى أنَّ المتديِّنين أخطَّ العالمين أخلاقاً وعقولا وهمما، سواء كانوا شرقيِّين أو غربيِّين، ولو كان هذا عصر الدِّين لرأينا المتديِّنين كما كانوا في العصور الأوَّلى فضلاء كاملين، عالمين عاملين، فسقوطهم اليوم إلى هذا الحضيض السَّافل، دليل على أنَّهم على غير سنَّة العصر، ولكلِّ عصر سنَّة، ولكلِّ دور رجال.

مرشد الأُمَّة، العدد 8، 1907

الصحافة

الصحافة أمر يبحث فيه عما يرقى النوع البشري إلى أوج الكمالات، وسعادة الحياة، فهي أنجع دواء لصداع التأخر، وجراثيم الانحطاط، وواضحة السقوط، وعلل الكسل، وكلوم الخمول، وأمراض التفرق.

الصحافة حدّ باتر لحلّ عُقد المشكلات، ومرجع للإشراف على غوامض العضلات، وأعظم وازع للجبابرة العتاة، وأكبر رادع للفراغة الطفاة، فهي زاجر لكلّ شيطان مريد، وناهر لكلّ صائل مكيد.

الصحافة زمام النّجاح، وآية الإصلاح، وبارق الفلاح، فهي رائد العمران، ومعجزة العرفان، وموقظة النّومان، وقائد الإنسان إلى عيشة الرّضوان، تبصر الجهّال، وتؤلم الأنذال، تبشّر تارة بالخير العميم، وأخرى بالعذاب الأليم.

الصحافة سلطانها فعّال، ونورها مدّلال، بها تنهض الأمم، إلى شامخ القمم، عزّا ورفعة ومجدا وهيبة وبأسا وشوكة.

فمنها انطلق الصّدق، ونبع الحقّ، وانتفع الخلق، فهي العضد المتين، والهدي المستبين، لذلك طار صيتها، وعلا شأنها بين الأمم الحيّة، حتّى صارت هي القطب الوحيد الذي تدور عليه رحي سياسة الحكومات الأروبيّة، التي هي أفضل من يدبّ على البسيطة مدنيّة ونظاما، وفي ذلك موعظة بالغة لقوم يعقلون.

الصحافة لإيجادها شروط وهي : عدم التّزلف للحكومات، عدم خدمة

الأغراض السَّافلة والغايات السَّاقطة، نبذ الاحتيال والتَّدجيل، مطارحة الميل للحظوظ النَّفسانيَّة والتَّضليل، مقاومة المستبدين، محاربة المعتدين، ثمَّ حرّية الفكر بأن لا تخطه عوامل الاضطهاد، وأن لا تؤثر فيه حروف الحيف والنَّكاد، وأن لا تكتفه أداة الإلغاء أو يقع في شرك النِّكال والعناد، وكونها لا رائد لجمع المال (وإن كان هذا لا يكاد يسلم منه صحفي) إلا من عصمه الله، مع ملاحظة سماع شكواها، وإيجاب نداها، وترديد صداها، أمّا إن جرت مجرى المثل المشهور «اسمع واترك» مثل ما هو جار في هذه البلاد، فلا أثر للفائدة في وجودها يومئذ حيث تعدّ من محيط الأعمال، وهذر الأقوال.

هذا وأؤكد الشُّروط السَّالفة الذِّكر، الأخير منها، فهو هيكَل يقام عليه أساس الإرشاد، وإلا فلا لوم على الصَّحافي مهما تعامى عن تغيير النِّكير، وجنح للتَّمَلُّق والتَّقصير. كما لا تعنيف على من سلك مسلكه، فلاقى حتفه، إذ كلٌّ على هدى، ونقول لمسألة العدل والتَّديد، رأسك والحكومة.

فالأوّل تحاشى عن التَّلَقِّي بالنَّفْس للتهلكة، والثَّاني سار على مقتضى الوظيف، ومذهبنا تعدّد الحق...

إلا أنَّ الكريم لا يخفر ذمامه بنفسه، بل عليه أن يهزّ قوام الانتقاد، وينثني بمعاطف ثبات الجأش، وينشد بألحان قمرى النَّصح ما استطاع، ثمَّ عليه أن لا يقنط من رحمة العدل، سيما نحن الذين يمكن لنا الحلف بتاتا بأن لنا في رجال باريس من يتهالك في صالحنا، ويتعشّق نهوضنا، وبريء من ذنوبنا براءة الذَّنْب من يوسف، بل تراه يبذل وسعه ويسرف جهده في انتشالنا من حضيض الظُّلم إلى حيث المساواة مع من بلغ مجده القمر، وسائر الكواكب من البرنامج الغريب الذي اختطّه الإنكليز للتَّصرف في مستعمراته، وهو إطلاق عنان الحرّية لسائر الملل والأجناس الذي يحكمها بدون فرق بين الإنكليزي، والمصري، والهندي، ومن سواهم حتّى تتكشف له مَحَبَّات القوم، ويأمن شرّ إغارة صدر المحكوم، وينتقم من كلّ ظلوم غشوم، وهي طريقة مثلى ومنقبة جليلة يحفظها له التاريخ، ويا حبذا لو نزعَت حكومتنا لمثل ذلك فإنَّ فرنسا

أجدر بهذا إذ أنها أغرق من إنكلترا في باب السؤدد والفخار، وأبرّ منها
بمرعويها...
أجل، ذلك المتعارف فوق الكواكب والمتآلف على الكرة من عهد ديبب
التّقدّم من فرائس الصّالحين الذين ملكوا الأرض ومن عليها، وحرّقوا
جبال الهمجيّة، وأنزلوا منزلها ألوية الحضارة وال عمران...
أمّا الأقطار المتأخّرة، والبقاع النّعيّسة، فإنّ خمول أقوامها واستبداد
حكّامها يتبرّيا إلى الله من الرّضاء بذلك، ويبدّلا النّفس والنّفيس في
الوقية بالصّحافي وتلجيمه بلجام من السّكوت، ويصبّون عليه سهام
اللّوم والتّعنيف، ويسومونه الصّغار والاحتقار، وتلك غاية الغباوة ومجلبة
الدّمار، وآية الجهالة ومنتهى الاندثار، فأيّ بلاد هذا حالها، فاندب
مستقبلها ومآلها وأبك أهلها.

نعم، لا نقصد التّعريض بحالنا معاشر التّونسيّين من كون لا قيمة
للصحافة لدينا، وللصحافي أيضا، فهو بين السّجن والخطيئة والتّوبيخ،
وسماع من الملام، وقارص الكلام، بل إنّما الخطاب موجّه لكميّة من
الدّول التي داخلتها نخوة الضّغط، وتفشّي فيها الاضطهاد، ولم تعمل
الوسائل لمنازلته، والتّملّص من حبالته، إمّا بنفسها أو بواسطة الغير، كما
إذا كانت محتمية والحماة أحرار، كنواب الدّولة الجمهوريّة بالنّسبة لنا،
أو رجال الأمّة الإنكليزيّة في مصر، فهؤلاء منذ احتلالهم لتلك الدّار،
واصلوا العمل في ترقية الشّعب، وإعطاء الحرّية للجرائد العربيّة
بتصييرها في مصافّ الصّحف الإنكليزيّة من جميع الوجوه، حتى غدوا
مغبوطين بين من ساقتهم الأقدار للاستغلال براية بعض الدّول، على أنّ
من ينظر لرقّيهم، ويطلع جرائدهم، يندهش من ذلك التّقدّم السّريع،
ويحكم بادئ بدء أنّ بلاد النّيل اليوم جزء لا يتجزّأ من أوروبا حرّية ومدنيّة
ونظاما، ولا غرابة إذا مدّ التّونسيّون أعناقهم لما عليه إخوانهم
المصريّين (وإن الوصول إلى تلك المرتبة دونها خطر القتاد)، ووالوا
الطلب في رفع الضّغط عن القلم، ليتسنى له استنهاض الهمم، بدون أن
يخشى مخاشنة الرّقيب، فتحلّ الألسنة من عقّالها، وتطلق الأفكار من
قيودها، ما دام لنا في البرلمان الإفرنسي رجال أحرار (كجوريس، والبان

روزي) وفي الخارجية ذلك الوزير الخطير (بيشون)، وفي السفارة ذلك الإنساني الحرّ (الابيت)، والكلّ يتعشّقون نهوضنا، ويتهاكّون في صالحننا، بل يبذلون وسعهم في انتشالنا من حضيض الانحطاط إلى حيث السعادة والمساواة.

كيف لا وهذا أحد عظمائها «مقرّر الميزانيّة»، الذي جاب قطرنا بالأمس، قد جعل طالعة تقريره إعطاء الحرّية للتونسيين، وتخويلهم الحضور في المجلس الشّوري، والمناقشة على حقوقهم المهضومة، فكلّامه هذا في أنّ فرنسا لا تريد بنا إلّا خيرا، ولا تودّ لنا ضررا ولا ضيرا.

وكان جنبابه أدرك ما يقاسيه التونسيّون من آلام الاستبداد، وضروب الاستعباد، فصدع بما يخلد له الذّكر الجميل، والثّناء الجزيل، فجزاه الشّكر والثّناء عن تونس والتّونسيين. وقد أمّل انجاز ذلك من وزارة (المسيو ألابيت) إذ توسّم فيه القيام بأعباء العمل بلا محاباة.

يسرّنا - وربّ الكعبة - أن أرى بادية حرّية في خلال أيّام هذا الوزير الجديد. فهل من مسعد لبلاد النّيل غير الصّحافيّين، لا والله، فهل بلغنا ما بلغوه من إفراد الانتقاد على الأمراء والوزراء، كلّاً والله، هل نفننا الرّكون للسّكوت والسّكون، وقهقرهم تجاهرهم وإعراهم عن مكنونات ضمائرهم، ومخدرات عقولهم دون مخافة الرّقيب، حاشا والله، هل جريدة «حبيب الأُمّة» التي رماها الحسد بالتّطرف والخروج عن موضوع الصّحافة كتبت ما يكتبه فؤاد في جريدته «الصّاعقة» من الانتقادات القارصة ضدّ أعظم مصر، أبداً والله. هل يوجد ذنب لها غير خدمة الأُمّة وإرشاد الدّولة يا ترى ؟

عجبا كيف يسوغ لأرباب النّظر، وولاة الأمور، أن يتساهلوا في قتل الصّحف وأنّها لم تقصّ غير المسموع، ولم تحدّث غير الوقوع، فضلا عمّا ينجم عن ذلك من تكبّد أصحابها الخسائر الطّائلة، واحتقار الأُمّة التي هي منها بالمكان الأعلى، على أن ليس بها ما يثير غضب الحكومة سوى الانتقاد على فراسين الارتشاء، والإدارة المختلة، والنّظامات المعتلة من كلّ ما يهّم الدّولة الاطّلاع عليه إن كانت تبتغي الإصلاح

كما تزعم، ثمّ تماهلت في صدق الوعود بإرجاعها كأنّها - أجزل الله توفيقها - جهلت أو تجاهلت التبايع الأهلين من فراق الصّحف الصّادقة. يقول «المرشد» هذه الكلمات، ومحيّاه يقطر خجلا، وحشاه يتقطّع أسفا، وجبينه يتصبّب عرقا، على حين أنّه في ربوع تخفق عليها مثلثة الألوان، وفي عصر طبّق فيه دويّ (السّوسياليسـت) أرجاء الديار الفرنسيّة، حتّى هدّمت له الكنائس قربانا، ونحن استعمرتنا المعاناة، وأبادتنا الإهانات، حتّى غدونا وما منّا إلّا مكلوم جانب، أو غبين أو مهضوم حقّ، أو حزين، أقول الحقّ ولا أخشى عواقبه، فإنّ مغادرة المسيو «بيشون» (وزير الخارجيّة اليوم) تونس، قد أنذرت بمستقبل الصّحافة وبشّرت، أنذرت لكونه ما كاد أن يستقرّ على متن باخرة السّفَر، حتّى أمطرت سماء الضّغط على الجرائد وأبلا حمل النّاس على تغطيّة رؤوسهم، والالتجاء لمطلق دكاكين البلد ودوره اتّقاء من شرّه الهالك، وبلائه الفاتك، حتّى طمى سيله الجارف، وذهب بالمزعج والحبّيب تحت ستار لا أصل له، وبشّرت بإرساله لنا بدلا منه رأيا ثاقبا، ولبا صائبا، شبّ على حبّ القسط والإنصاف، ومشاركة الإيثار والاعتساف، كذلك الوزير الخطير (المسيو ألابتيت) الذي سيرينا من حميد الخصال، وجليل الأعمال، ما تهشّ به الخضراء، وتخرّ لمجاداته الجوزاء، ويرضي جريدة «الطّان» [Le temps] حتّى لا تعود ترمي محاكمنا بالاختلال، وأحكامنا بالاعتلال. أما تنجيز ما وعد به فخامة وزير الخارجيّة، فوقوعه ضربة لازب، إلّا أنّه لما كان من جملة ذلك إدخال الأهلين مجلس الشّورى، وإلى اليوم لم يزل سرّ الانتخاب مجهولا، فنحن نقدّم طلبنا لأعتابه في أن يكون أمره مفوضا للرّعيّة إسوة بالأمة الفرنسيّة الفخيمة، كما أنّنا نوّمل المسارعة بذلك، فإنّ الوطنيين من يوم قرع هذا الخبر آذانهم، ينظرون لتحقيقه بفارغ الصّبر، لما لذلك من الاعتناء بتدبير صالحهم طبق نزلاتهم الفرنسيّين، وأن يصدّ هجمات المعتدين، ويكسّر رقاب المتعصّبين، ويفند مزاعم المفرضيين، الذين لا يهتمّهم تلوّث سمعة فرنسا العظمى ورجالها الأعلام، إذ أنّهم لا يعملون إلّا لما فيه الخير العميم لشخصهم، وما يعود على أشباحهم كدوكارنيار [De Carnières]

وأضرابه صاحب الآراء الخرقاء، والسياسة العمياء، التي لم يتقدم لها
نظير حتى في الأمم المستبدّة، فهو لا يعنيه إن كانت داره عامرة أن يكون
العالم خراباً !

وفي الختام، أقول لأرباب الصّحف الوطنيّة، إنّه لا يجب أن يوهن
عزائمكم سخط حلّ ببعضكم، أو اضطهاد قد ضايقكم، لأنّ من يريد
الإصلاح والنّهوض بالشعب، لا يليق به الجبن والخوف على راحته
الوقتية. على أن رجال الأُمّة يشقون لشقائهما، ويسعدون لسعادتها. وليس
السّخط عليهم واضطهادهم إلّا أمور عرضيّة تنتهي بحصولهم على
ضالّتهم المنشودة، وبلوغهم إلى أمنيّتهم عاجلاً أو آجلاً، والله بصير بما
تعملون.

مرشد الأُمّة، العدد 11، 1907

الصناعة

الصناعة مادة العمران، وقوام الحياة، وروح الألفة والاتحاد، والحاجة القصوى التي ربطت بني الإنسان بعضهم ببعض.

فهي اللباس للكاسي، والمبيت للسّاكن، والمهاد للقاعد، والمطية للركاب، والسيّاح للمدنية، والعدة للجيش، بل كلّ مرافق الحياة والقوة الحقيقية للأمم، والسلاح الذي به الفوز والظفر لمن مرنت يده على استعماله واستخدامه، والهزيمة والفشل لمن قصر في ذلك أو تهاون.

ومن قال إنّ الإنسان مدنيّ بالطبع، فقد اعترف معنا بأنّه صانع بالطبع، لأنّ حاجته لأبناء جنسه في مطالبه وشؤونه هي البرهان على هذه القضية، وما هي في الحقيقة إلّا حاجته إلى صنائعهم وأنواع حرفهم التي لا يستقلّ بالقيام بها.

فالصناعة إذن من الضروريّات التي لا يستغني عنها الإنسان بحال، ولا يتسنّى له الحياة بدونها، وهذه الخاصّة تختلف درجات لزومها باختلاف الأمم وتفاوتهم في الهمجية والمدنية وما بين ذلك، فالهمج وأهل البداوة إنّما يحتاجون إلى البسائط من الصنائع من أمثال الغزل، والحياكة، والخياطة، والفلاحة من غير علاج كثير في الصنع، وبدون احتياج إلى الإتيان والإحكام. فأما ما لا يخرج من القوة إلى الفعل، ويظهر من الخفاء إلى العيان إلّا بإعمال الفكر وإعانات الدّهن من الصناعة المستجادة، فلا حاجة لهم به.

وكلّما ارتقى الإنسان في شؤونه ازدادت حاجته إلى الصناعة،

واستجدت له أنواع منها، يخلقها العمران إن كانت غير ضرورية له، وهلم جراً، حتى يصل إلى الحد المقدور له فتكون تمت صنائعه وأنواعها بمقدار هذا الرقي، وعلى نسبة هذه الحال الطائفة عليه.

فألهمجى مثلاً يمشي عارياً أو حافياً ولا يجد حاجة إلى ما ينتعله ويشتمله، والمدني قد تجاوز الانتعال والاشتمال إلى لبس الجداء والكساء على هذه الأوضاع المعروفة، وأوصلته مدنيته إلى الاحتياج إليهما وهما مفرغان في هذه القوالب المحكمة حتى لو لم يكونا كذلك لنظر إليه قومه وهو كاس بهما نظرة اشمئزاز واستخفاف لا تصدر من القوم الحفاة العراة إذا رمقوا بعضهم بعضاً وهم كيوم ولدتهم أمهاتهم مجردين من المخيط والمحيط، فقد وضع بذلك أن الصنعة بنت العمران، كما أنها مادته التي يتكون منها، فإذا زخر بحره وامتد رواقه، فإنما يكون ذلك بكثرة الصنائع المقومة له، حتى تنتزل له منزلة اللبئات من البنية أو الأعضاء من الإنسان.

وإذا تقلص ظله، اضمحلت تلك الصنائع، ولا يبقى منها إلا الآثار العادية التي لا تقوى على محوها معاول الدهور، وحينئذ يقضى على أهل تلك الصنائع فينقرضون بانقراض العمران، وتراجع ملكة الصناعة إلى حالتها الأولى من البساطة والسذاجة.

وعلى هذا فالصنائع المستجادة من نتائج العمران، والعمران ثمرة من ثمار المدنية، وهو السوق الكبرى التي تنفق فيها السلع وتروج بما يتطلبه التأنق في الملبس، والمسكن، والمأكل، والرياض، والزينة من الكماليات التي تنقل باستفحال العمران إلى ضروريات لأناس، وشبه ضروريات لآخرين. هذه هي منزلة الصناعة بالقياس إلى الإنسان، ومنها تعرف أنها حياة لقسم كبير من الأمة يعتمدون عليها في تحصيل أرزاقهم، وتعظم نسبة هذا المعاش يتوفر الدواعي على طلب هذه الصنائع بما يحدثه العمران من حاجة الناس إليها حتى ربما كانت نتيجة الصناعة للماهر الحاذق البصير بها ثروة واسعة ومعاشاً رفيعاً وغنى ليس وراءه غنى، ومتى اشتهر أهل قطر بالحذق في الصنائع وحسن القيام عليها، لم تلبث حتى تتجاوز حدود قطرهم، وتنتقل من مكان إلى مكان، فيكون لها سوق

هنا وهناك، ويعظم الإقبال عليها بالطلب من الناس، ويتنافسون في اقتنائها بمقدار تنافسهم في الرفاهية وخفض العيش، وعلى نسبة العمران القائم بينهم، وعندئذ تبلغ مكاسب الصنّاع المبالغ العظيمة، وتصل إلى أيديهم أموال الأمم القريبة والبعيدة، فيجمعون إلى ثروة قطرهم ثروة الأقطار، ويغزون البلاد بصنائعهم وهم مقيمون في عقر دارهم، فيفتح عليهم، ويحصلون على الغنائم العظيمة بالأمن والسلام من غير أن يوجفوا للحرب خفاً ولا حافراً، حتّى لا يكاد يحسّ بهم أحد أو يُسمع لهم ركزا. واعتبر أن تكون الصناعة مادة للتجارة وعروضا تُعمر بها أسواق البيع والشراء، فينتفع بها الصّانع والتّاجر جميعاً، وفي ذلك غناء لصنفين عظيمين من الناس إذا حصلت الثروة بأيديهم أنفقوا عن سعة، واستخدموا في شؤونهم قسماً كبيراً من قومهم، وكانوا سبباً في سعادة الأمة بأسرها. فقهت ذلك الأمم المتعلّمة. وعرفت ثمرة الصنّائع وأنّها لا تعادل بثمرة، فتوجّهت بشوق عظيم إلى تعلّمها، وانساقّت بقوة الرّغبة إلى الممران عليها، حتّى رسخت ملكتها في نفوسهم، وبلغوا من البصر بها والحدق فيها شأواً بعيداً، فملكوا بذلك كنوز الدنيا، وحازوا خيراتها، واهتمّت حكوماتهم بتذليل السبيل لهم وتذليل العقبات التي قد تقوم في وجوههم، ففتحت في كلّ ناحية من الأرض أسواقاً عامرة ببضائعهم. وإنّك لو أحصيت المشاكل التي حدثت بين هذه الأمم المتعلّمة وغيرها، لوضح لك أنّ علّة أكثرها فتح أسواق المتاجر.

ولو روجعت الأسباب التي حملت الأمم الغربيّة على استعمار الشّرق واستعباد بنيه، لكان رواج المتاجر والصنّائع في مقدّماتها. هذه ألمانيا وهي مملكة صناعيّة ظلّت زمناً طويلاً وهي لا تتخطّى حدود بلادها ولا تتجاوز أقطار ملكها، مع أنّ صنائعها رائجة في الممالك الأروبيّة لرخصها ومتانتها، ولكنّها لم تطق الصّبر على هذه الحالة، فحملتها الرّغبة في تصريفها سيل صنائعها المتدفّق على الاستعمار، ولا يزال أمبراطورها العظيم ينادي بملء فيه، بأنّ ألمانيا لا تضمن حياتها راقية سعيدة إلاّ بالاستعمار، وفتح أسواق البلاد لمتاجرها، ولذلك لا تمرّ به فرصة في الممالك الشّرقية حتّى يثب عليها، وليست مشكلة حلّ

القوة في الاتحاد

لله من كلمة ثمينة وقول سديد يمثل السعادة بجميع معانيها، ويرشد المرء لمرايع النجاح، وأسنى منازل الفلاح، علاوة عما فيه من حذر الوحشة التي هي أساس الضغائن والتحاسد، وبيت التخاذل والنكائد، وركن الخسران والوبال، ففي ضد مغزاها الفقر، والمذلة والقهر، والبلاء الأصفر، والموت الأحمر، بل عنوان الخيبة والشؤم، والحيرة والهموم. أدركت الأمم التي أراد الله بها خيرا أحقية مرمى تلك القضية المحكمة الحرية بأن تكتب بمداد النور، على وجنات الحور، «القوة في الاتحاد»، فطفقت تلتئم وتجتمع وتغرس في أشجار التحابب والوئام، في فيافي التجافي والانقسام، حتى إذا ما برت ودخلها الزهو والجداذ، جنوا منها العزّ الأبدي، والفوز السرمدي، وباءوا بكلّ سوّد وفخار.

هذه الدول ذات الهيبة والسلطان، والاستيلاء على المعمور وما حوى من السكّان، ما كان يتسنّى لها - وربّ الكعبة - الرقيّ على صهوات الفتح والاستواء على عرش الاستعمار، وإناءة السيّط والجاه، ولا انصياعها لفحوى هاتيك الجملة البديعة «القوة في الاتحاد».

ها بين أيدينا تواريخها وكلّها تشهد بأنّه لكلّ منها طلع رديّ، وأوّل سميّ، يرقص لنغمات الشقاق، ويذعن لأوامر الافتراق، ويسجد لصلبان الأوهام، ولولا النّزوع عن هاتيك الأخلاق المكيدة، والشيم المبيدة، والأخذ بناصية التّوادم، والتّواصل عملا بما جاء في أساطين الهدى «القوة في الاتحاد» لما رأيت لها مآثر تذكر، فيا للغفلة والذهول.

إنَّ الواقف على آراء فلاسفة العمران، يرى الاتفاق فيها رافعا أعلامه، على أن استقامة هذا الكون ورعاية أهله من نكبات الحدثان لأيسر من العبور إليها والظفر بها من امتطاء متون مسومات الاتحاد والتدرّج بزرد الشورى الحصين.

روى صاحب مجموع اللطائف، أن المهلب ابن أبي صفرة أحد رؤساء جيش عبد الملك ابن مروان، لما أشرف على الوفاة، استدعى أبناءه السبعة وأنباهم بأنبيائه، وبذل لهم من النصائح التي تتفهم دنيا وأخرى، ثم أمرهم بإحضار رماحهم والمونسات مجتمعة، وتقدّم إليهم أن يكسروها واحدا فواحد، مبتدئا بأصغرهم، فلم يقدرُوا، فقال لهم : فرّقوها، وليتاول كلّ واحد رمحه ويكسّره، فكسّروها بدون كبير عناء وشقاء، فعند ذلك قال لهم : اعلّموا أن مثلكم مثل هذه الرّماح فما دتم مجتمعين ومؤتلفين يعضد بعضهم بعضا، أمّا إذا انقطعت علائق ارتباطكم، فإنّه يضعف أمركم، وتتمكّن منكم أعداؤكم، ويصيبكم ما أصاب الرّماح.

هذه وصيّة من أبلى الزّمان وامتنح طبائعه المحاقة بالعطب والكدر، وما كانت لتصدر عن غير أب لولديه العزيزين الذين يسره ما يسرهم، ويسوؤه ما يسوؤهم.

لا شبهة أن من له ذرة عقل، بداهة يفهم أيلولة هذا الرّشاد الخالص للحوم حول «القوة في الاتحاد»، كما أنّه يحمد بادئ بدء ما توفّق له البعض لأمد قريب من إحياء الحفلات النّافعة، والاجتماعات المباركة المنبئة عن شرف شعور أمّتنا الضّئيلة والهامها ما لا محيص عنه إزاء معترك البقاء من كلّ ما يبشرنا بحصول آمال طالما تمنّيناها وعزّت ونيل رغبات كنّا نخال دونها خرط القتاد، هي الانصياع لأسرار تلك الفقرة الأنيقة «القوة في الاتحاد»، أي أنموذج المدنيّة وهيكل التّقدّم في كلّ مكان وزمان.

لا جرم وجف التّونسي خيفة ممّا حاق به من شرّ الكسل، والرّضا بالفشل، والاستكانة للتّقاطع النّاشيء بلا ريب عن التّشعب في الكلمة، والعدول عن مناهج الإخاء، وإن شئت قلت عمّا يترى من خلال منحى

«القوة في الاتحاد»، فجعل يبعد من هوة التفرد المماسّة لبؤرة الخراب، ويدنو من ساحة ما يوليه الراحة والتّرف، والنّخوة والشّرف، ويجلسه على أريكة الكمال، عملاً بمنطوق «القوة في الاتحاد».

فكان أوّل خطوة خطاها في هذا السّبيل، سبيل النّجاة من مؤثرات الانقراض.

هو تأسيس الجمعية الخلدونيّة العامرة في أوائل سنة 1314 هـ (1896م) تلك التي بذلت من المساعي الباهرة بهمة أعضائها الكرام، ما أيّد بقاء هاتيك المدرسة العظيمة كعبة يحجّها المتعلّمون من أهل هذا القطر، فيبوّؤون وقد مُليت أذهانهم علماً دنيويّاً، وعرفانا حيويّاً لا يستغنى عن اقتنائه بحال حتى إذا ما أحسّوا بإساءة مصير الجامدين فينا، اندفعوا يندروننا شقاوة مسالمة الخمول، وإلقاء العصاة تلقاء سيطرة الدّمار، ويحثّوننا على الوقوف عند حدّ «القوة في الاتحاد».

هذه الجرائد الوطنيّة التي أصبحت ولا همّ لها إلّا منابذة المحافظة على العتيق، ومتاركة الاقتناع بحجاب الجهل الصّفيق، والاتّكال على خوارق العادات، تارة يملأ صراخها الفضاء، ويبلغ عنان السّماء، دفاعاً عن مصالحنا، ودعاء لتألفنا، لم تسطّر بغير يراع أولئك البرعاء الغيورين إلّا ما شدّ، ولا غرو فقد علموا أنّ «القوة في الإتحاد».

زد أنّك مهما سمعت بفضيلة نشرت، أو ماثرة ظهرت، أو مشاريع كوّنت وفُحصت عن الموجد لها، والمتسبّب فيها، فلا تُلفى غير اليد الخلدونيّة البحتة، أو هي ذات النّصيب الأوفر في ذلك، والنّادر لا حكم له، ولا عجب فقد أيقنوا «أنّ القوة في الاتحاد».

لهذا وذاك، كان الواجب على إخواننا المسلمين الذين كلفوا بحبّ التّمدّن الحقيقي، والنّسج على منوال الفاتحين ذوي الحياة الطّيبة، والعيش المريّ، أن لا يهملوا إمدادها وإعانتها اتّساعاً لنطاقها، وحفظاً لكيانها من أن تلعب بها بوادر السّقوط، ما دامت فوائدها في نموّ، ونتائجها في علوّ، وما عند العلم خير وأبقى، وأنّ التّكالي على الجليل جليل، «وأنّ القوة في الإتحاد».

فما أحوجنا معاشر المحمّديّين لإيجاد فروع لها في سائر بلدان

المملكة ومراكز الأعمال، تطيبها لنفوس آلمها الخمول والصبر عليها ذلك الذي ما نزل بأرض إلا أوجد لها من الرزايا والمصائب ما يقضي عليها بنحاسة المنقلب.

تتبّهوا - يا رحمكم الله - من نومة ما أنامها قبلكم أحد، وهبّوا للكدر والجدّ في إرجاع ما أضعتم من الرّفْع، واقلعوا عن التّبّاطي المملّ، والونى المخلّ، ولتفقّوها «أنّ القوّة في الاتّحاد».

بيننا من ذوي الثّراء والميسرة من يسع رزقه التّبّرع بآلاف الفرنكات، فما أجبنهم رزقوا الهدى أن لو تفضّلوا بجزء من ذلك المال العريض على تلك الكليّة الجليلة، معهد العلم والتّعليم، حتّى يصحّ انتظامه في عقدها الجميل، ولا يرمى بجهل «القوّة في الاتّحاد».

إنّ ذلك المنهل الصّافي مثله فينا كعريف نزل حيّه خلاء مخوفا لا ماء به ولا مرعى، فتقطّعت به سبل المذاهب، وخفيت عليه أدلّة الوقاية من تهلكة الجوع والظّماء، فأخذ ذلك، الرّائد الماهر يدبّر في تكوين مسلك ممرّ بالماء الغدق، والفدغد الخصيب، محفوفاً بالعمران ليقود له قومه المحتضرين فيعتقون من أسر الملكات.

إذا كانت هذه مثابتها، فالترّدّد دون إنجاده عار وشنار، على أنّ المال ما خلق إلا لأن يباد في الصّالحات.

مرشد الأُمّة، العدد 19، 1907

جريدة المعمّر الفرنسي

يسير المعمّر الفرنسي سيرا حثيثا في طرق إعنات الأهليين، والتلاعب بحقوقهم المقدّسة، وعدم المبالاة باحترام امتيازاتهم الحيّاتيّة التي خولتهم أيّاه الوطنيّة، وتوارث البلاد أبا عن جدّ من نحو اثني عشر قرنا أو تزيد، بل وبحسن انقيادهم للحماية وولائهم لرجالها الأحرار، منذ حكمت الأقدار بالامتزاج بهم إلى حتّى اليوم.

وما اكتفى ذلك الزمّل الأثيم باستئثار بني جنسه بما سما من الإدارات، وجلّ من المزارع، وصلح من مرافق هذه الديار.

فهو صباحا مساء يتعب في فكرته، ويشحذ في قلمه، لتسطير وجوب اضطهادنا أحيانا، ولزوم التضييق عنا تارة، وتحميم الصرامة معنا أخرى، علاوة على ما كان اجتهد في طلبه، وفاز بنبله من قفل المكاتب في وجوه أبنائنا، وسلبنا وظائف شؤوننا شيئا فشيئا إلى أن نهاجر أو نموت ممقوتين، ولولا عدالة الجمهوريّة ذات الشان، لاقترح ذبحنا بمدينة الاغتيال، كما فعل رهبان الإسبان مع مسلمي الأندلس أيّام إذعانهم لدولتهم المتهمّجة، إذ طلبوا من حكومة مدريد يومئذ جبر المحمّديين على اعتناق المسيحيّة، أو رميهم بالرصاص شنقا، حتّى سفّهم الملك لذلك العهد وذهبت آمالهم أدراج الرياح...

(دوكارنيار) ولو كان قومه ينادونه بسقيم الأقوال، ويلقبونه بعقيم الأفعال، إذ استرسل في الرّكض بفجوج الاعتساف، ومصادرة المساواة، والمنابرة على إبداء ما يشين سمعة أمته الفخيمة بدون مهلة وفتور،

يشعران بنقمة من داء الحماسة التي ابتلاه الله بها، ولا غرابة فقد قال الحكماء الأقدمين : **دواء الحماسة شرب الماء البارد** إلا الحماسة أعيت من يداويها **لكل داء دواء يُستطبُّ به** إلا الحماسة أعيت من يداويها فإن (دوكارنيار) لا يرى حطة في السخرية بفساد آرائه، ولا يبصر نقيصة في الزدراء بأخباره، ولا يهتزُّ أبدا من العبث بأنبائه، بل لا يخال ذلك إلا قصورا عن إدراك مغازيه، ووقوف دون فهم مراميهِ. ولا غرو فالمجنون يضرب من لا يسوغ ضربه، ويسبُّ من لا يجوز سبُّه، وإذا عوتب أو عيب عليه ضلَّ ضاحكا مستهزئا بلائمه، ولربما همَّ به شرا. يقول المومى إليه والخطأ ملؤ فؤاده، أن العرب أسوأ هم والأوابد العادية، وما تدري ما مستنده في ذلك، ولا يبعد أن يكون تأخرنا عن مجارة الأمم المتمدنة في ميادين الحضارة وأفانين الرقي، ولكن إن كان هذا احتجاجه فيما يجيب إن قلنا له تلك مشيئة أرباب الأمر والنهي فينا، وإرادة الاحتلال. ثم الجرأة التي يرمينا بها في كل آونة لا ندري من أين له استنباطها، وهو يزعم أن ديننا لا يسمح بقتل الحيوان على الإطلاق، اللهم إلا أن يكون هو ليس من نوع المتحرّكات ولو العجم، وإن كان هذا ينافيه نطقه أيضا فليدبر عتوه، ولينصف الحكم فيما نلقيه عليه من الأسئلة الهامة لعله يتذكر أو يخشى، وهي هل الجور إلا جزء من التوحش، فإن أثبت فهو متوحش لأن جميع طلباته مملوءة هضمًا وانتقامًا من التونسيين أو المحجورين... وإن نفى يلزم أن السبع الضار إذا سطا على الإنسان وسقاه ريب المنون، كما هي عادته، عندما يلتقي بالآدمي يقال فيه إنه أكيس مهذب بعيد عن مزلق الوحشية، وهو عين إنكار المحسوس. **فليتأمل حقاذة المتهجم على متاع الغير بدون موجب عدلي، وليعلم أننا نفقه جيدا القانون الذي أوجدته مخيلته وهو يعمل لتفنيده خمسة وعشرين عاما، وهاك هو بعد أن أخذناه من دماغه بفوتغراف الفراسة، ونصه :** **الإنسان في سبيله لا يأنس إلى شيء من المخلوقات إلا ما كان له من نفع** باسم الكنيسة، نحن (دوكارنيار) قيصر الإجحاف، وإمبراطور الاعتساف، نأمر حزب الخراب من تبعتنا، أن يسعى وراء تنفيذ لائحتنا

هاته المشتملة على عشرين فصلا قانونيا مقدّسا، وأن لا يتخطّاها قيد شبر، وأن ابننا «تريدون» مكلف بنشر دعوتنا، وإذاعة رغبتنا، وهو الوصي والوكيل على حزب الخراب.

الفصل الأول

جدّوا إخواني في وصم العرب بكلّ مَعْرَة، ككونهم لا يألّفون الطّاعة، ولا يبرّون الجوار، ولا يصادقون الدّخيل بحال، حتّى إذا تمكّنت هاته الوسواس من رؤوس «الرؤوس»، حقروا وزحزحوا عن مواقع التّوقير والأخذ بالنّاصر، فيسهل وقتئذ نهب أموالهم، ومحق أطلالهم، وبقينا منفردين، ولا علينا في نوايا دولتنا نحوهم لأنّها تسعى لما يزين سمعتها، ويرفع منزلتها بين الأمم المتقاطنة في هذا العالم، وهذا شيء، وقصدنا شيء آخر.

الفصل الثاني

يجدر بنا معاشر الأتباع الاعتناء بصيرورة أراضي هذه الإيالة إلينا ولو بطريق الاغتصاب، فإنّي رأيت فيها ما يخفى على الكثير منكم من رونق المناظر الطّبيعيّة، وبهجة البساتين النّضرة، والأشجار المثمرة، وجوّد الطّينة، وخصب التّربة، ووفرة المعادن والمناجم من كلّ ما يقضي علينا بصرف الهمة لامتناسصها من أربابها، وتركهم فيها أجراء، وطردهم إلى حيث الخلاء والرّمال، عملا بقاعدة «قم لأجلس مكانك» !

الفصل الثالث

لا يلقّن العربي المعارف العصريّة مهما أمكن مخافة رفعه من حضيض الغفلة وصعوده على صهوات التّقدّم، بل والتّحاقه بنا معرفة بأحوال هذه الفانية، فيتسبّب على ذلك ما يتسبّب من إحاقّة الخطر بمستقبلنا، وناهيك بمزاحمة من يفقه إتيان بيوت الاسترزاق من أبوابها صناعة وفلاحة وتجارة وقلما، بعد أن كان في هوّة الحيرة دائخا تلوح على محيّا بوارق الانذهال والدّهشة، لا يهتدي إلى الرّفاهيّة سبيلا، وبعد أن كان يتيقّن أنّ الحيف حقّ، وأنّ الكذب ربّما كان صدقا، والتّفضيل إنصافا !

الفصل الرابع

من المصلحة ابتعاد الذين اختطّ أوائلهم مدن هاته الإيالة عن الخدمات الدولية أسوة بصنع إدارة الأشغال العامة والبوسطة والمحافظة، إلّا ما ألجأت له الضرورة كإقامة حرّاس الأبواب منهم، حيث لا يوجد بيننا من يتنازل لذلك لضعف الجراية. وإنّ أسهل مسلك موصل لهذه الغاية، فيما يظهر، تعويض من يموت منهم على وظيفه بفرنسي، وكذلك المعزول إلى أن نستأصل شافتهم أجمعين، أمّا حرمانهم من ذلك مرّة واحدة تخفيفا لعناء الانتظار وتعجيلا للفائدة، فذلك ما يتمناه كلّ رجل مثلي ذاق حلاوة الاستبداد.

الفصل الخامس

إنّ أحسن وسيلة تدعو مساكننا للنزوح من هذه الإمارة إلى قارة أخرى حتّى نظفر بالمغنم الذي ما بعده مغنم، تغليظ الضرائب عليهم مع تكرّرها في العام عدد أصابع اليد على الأقلّ، وإكراههم على دفعها موسرين أو معسرين، حتّى يعمّهم الفقر المدقع، فيولّون وجوههم شطر السّفَر والبروح، وليس ما عليه إدارة المال اليوم بكاف لبلوغ تلك الأمنية في الوقت القريب، فإنّ محتويات بندنا هذا أكفل بلثم كفّي المرام بسرعة عجيبة، ومن يرتاب في ذلك فليتخذ التجربة له دليلا...!

الفصل السادس

على ذوي الحلّ والعقد من دائرة العدليّة أو غيرها ركوب متون الشدّة فيما يصدرونه من الأحكام على مشاغبي الغرب فيما بينهم، أو خصوم المسيحيّين منهم ظالمين أو مظلومين، والأمل من العدليّة النزوع لهدر دم الأهلي والأخذ بثأر الأجنبي ولو من آل إسرائيل، وأسأله سبحانه أن يرزقها الوثوق التّام بعري التّفرقة بين الجالي والوطني، وقهر هذا وتأييد ذلك ما دام اللّيل ليلا والنّهار نهارا !

الفصل السابع

الحذر الحذر من سماع ما تتفوه به تلك الطائفة (الجون تونزيان) [Les Jeunes tunisiens] فإنّها ترمي إلى ما يناقض الأغراض المتقدّمة، ويهدم ما شيّده البوار من كلّ ما يطير صيت فرنسا حريّة وفخارا، ولا يتسنّى معه للنزلاء الإحراز على تلك المآرب العزيزة التي هي معنى الثراء الطائل، والغنى الواسع، لأنّ النّقطة التي يحومون حولها أولئك المعارضين هي نشر المعارف بين طبقات بني جنسهم، واعتبارهم شيئا مذكورا إزاء معترك البقاء، وفي ذلك ما فيه من العطب العظيم على سياسة الخراب.

الفصل الثامن

يجب عليكم معاشر الأتباع الأعزاء أن تصرفوا دائما همّتكم في كلّ ما يعود عليكم بالغنى الطائل والثروة الواسعة، وأن تضايقوا الأهالي ما استطعتم، ولكم أسوة حسنة بإخوانكم معمرّو طبرية، فإنّهم بحزمهم - جعلنا الله وإياهم في حمى الأب الأعظم - قد امتلكوا تلك الأراضي في أقرب وقت، وشتّتوا شمل العرب من هنالك حتّى اضطرتّ الحكومة إلى محو (العمل) وإنزاله إلى (خلافة)، حيث لم يبق من أثر الأهالي إلّا أسماءهم في دفاتر (القيادة) وهو أمر يسرّ خاطري ويطفئ عني لوعة تكاثر السوسيّاليست [socialiste] !

الفصل التاسع

يجب على كلّ فرد منكم أن لا ينسى من دعائه الصّالح إدارة الفلاحة التي أصبحت لا همّ لها إلّا شراء الهناشير وتوزيعها بكيفية مرضية عليكم مع إسعافكم بكلّ إعانة وتنشيط، وما نصيب العرب منها إلّا ضرب الأجال المضيقّة لهم في وجوب الرّحيل من تلك الأراضي الخصبة الطيبة التي سكنوها القرون الطّوال، وتركها لكم واسعة، كما وقع ذلك أخيرا في طبرية من ترحيل مشيخة كاملة تقريبا.

الفصل العاشر

لا يثني عزائكم عن مقاصدكم عويل العرب، ولا يأخذكم الجنان الإنساني بهم، فإن في ذلك الطامة الكبرى على مستقبلكم، وما أتيتم لأجله من بلاد الآباء والأجداد من الحصول على الرفاهية، والثروة، وسعة الرزق ورغد العيش، والتَّهْيِمين، وإن عمَّ الخراب غيركم، وحلَّ العذاب بسواكم، وإياكم ثم إياكم من فهم كلمة سياسة التَّشْرِيك، وسدَّوا أذانكم دائماً عن سماعها ولو أُذِنَ بها في عاصمة الجمهورية المؤذون، أو دقَّتْ بمنارات الكنائس بها النواقيس.

الفصل الحادي عشر

يتحمَّ عليكم معاشر الأتباع الأعزَّاء تكثير الجرائد الكنيسية، وإسعاها بكلِّ مساعدة، لأنِّي أراها هي الوسيلة الوحيدة لمعاكسة من سمَّوا أنفسهم اشتراكيين، وتضليل الحكومة عن محجَّة الإنصاف، والأخذ بآرائهم السقيمة القاضية بمشاركة هؤلاء العرب معنا في خيرات بلادهم، ومساواتهم معنا في الحقوق البشرية والحال أنَّهم جنس تجب إبادته شيئاً فشيئاً ليخلو لنا الجو، ونأمن من مضايقته في حال من الأحوال.

الفصل الثاني عشر

إياكم والخوف من عواقب السياسة العوجاء في نظر (السُّوسِياليسْت) بقياسكم إياها على ما أجراه الإسبان مع عرب الجزيرة، وقد آل أمره إلى ما هو عليه الآن، فإنَّه وإن كان التَّخَوُّف في بابه، إلاَّ أنَّه لا يلحق بجيلكم ولا الجيل الذي يليه، وما علينا إن سعدنا وشقي غيرنا مع أنَّه فعل قد أَرْضَى الكنيسة وأنا.. وهو ما أحملكم دائماً على مراعاة جانبه بفاية التَّحْتِيم.

الفصل الثالث عشر

يجب عليكم فتح اكتاب لإقامة تمثال لجناب مدير المعارف (مسيو مشويل) [Louis Machuel] الذي أعنت الأهلين في تعليمهم ثلث قرن

لحدّ لا تجد فيهم طبيبا، ولا مهندسا، ولا ولا... إلّا من يفهم بعض كلمات محرّفة إفرنسية لا تغنيهم شيئا ولا تميّزهم عن الحمّالين من الجنوب الإفرنسي، وإن وجد في السّنقاليين من تأهّل لرتبة (لنجنيور) بفضل نصح التّعليم.

الفصل الرابع عشر

بناء على خفوق مسعانا، نحن معاشر المعمّرين فيما استقرّ عليه رأي أغلبية الشّورى من عدم تنقيص الضّرائب على الأهالي بدل تثقيل كاهلهم بكلّ ما يثخن قواهم، وإعفاء النّازحين لهاته المملكة العريزة ولو من أبناء صقلية. وقد عملت الدّولة بخلاف ما ارتأيناه وخفّفت شيئا من المجبي، وسدّدت العجز بضرائب أخرى ينالنا منها شيء يسير، وبالمليون الذي دفعته شركة قفصة وحرمت الاستعمار من التّمتع به، فيجب عليكم العمل بالفصل الحادي عشر من قانوننا هذا وتنفيذه حالّا.

الفصل الخامس عشر

يجب علينا معاشر الأتباع الأعزّاء، وجوبا أكيدا، أن نجعل همّنا الوحيد هو المناداة بإلحاق هاته الولاية الخصبة بالمستعمرات من اليوم، لأنّه مبدأ شريف، لنا من ورائه الرّاحة الدّائمة، والاطمئنان المستمرّ، لأنّ البوارق البسيطة التي تظهر أحيانا من الخارجية في معاكسة نوايانا، وأغراضنا المبيدة لهذا الجنس العربي الوسخ، يندرننا ويحذرنا بأن لا نستصغره ونهزأ منه، بل يجب الانتباه إليه وصدّه بسائر الوجوه.

الفصل السادس عشر

إن سياستي (العوجاء في نظر الاشتراكيين الكاذبين) هي سياسة مثلى لكم ومبدأ شريف، فاقتفوها ولنا الفخر بالتّبات عليها نحو من ربع قرن، ولا همّ لي إلّا إسعاد النّزلاء وإشقاء الأهالي وسبّهم وتلبّهم، وقد لننا بفضل التّعصّب ثروة عظيمة ومركزا لا يترزعزع، ولم أعبأ بعويل النّاعين لي سواء كان ذلك هنا أو هناك، فاقتفوها فاقتفوها. (رأيتهم)

الفصل السابع عشر

كونوا مطمئنين أيها الأتباع، ولا تحزنوا من شيخوختي واحداً من الظَّهر منِّي، وذنوّ نجمي من السَّقُوط قبل أن نصل بكم إلى المقصود، ونتركها لكم كما تشاءون ونشاؤها لكم، فإنني تركت لكم موارد الثروة بهذه المملكة بأيديكم من فلاحه وزراعة وإدارة، وما للتونسيين إلا الوقوف بالباب في هاته وفي تلك، تشغيلهم واستخدامهم عندكم بأبخس الأثمان، فترحموا عني، وابكوني إذا حلّ الأجل !

الفصل الثامن عشر

يطمئنّ خاطركم ويسليكم عني وجود مقيمنا المحبوب، أطلال الله أيامه، فإنّ تصرّجاته في خطاباتاته أولاً وثانياً تبشّرنا باعتناؤه الزائد، وميله المتزايد نحو الاستعمار، فإنّه، حفظه الله، أكثر من ذكر هاته الكلمة الجميلة (الاستعمار، الاستعمار، الاستعمار)، مبهجة بتقدّمه الباهر، ولم نشعر بذكره كلمة (المسألة الأهلية (أو) السياسة التّشريكية)، فحوّلوا بينه وبين محبة الأهالي بسائر الوجوه الممكنة وغير الممكنة. وهكذا مع كلّ كبير.

الفصل التاسع عشر

نكرّر القول بأنّ ابننا «تريدون» وأمثاله يجب عليهم نشر هذه اللائحة وحفظها وإفهامها للأتباع.

الفصل العشرون

الجور مكلف بتنفيذ ذلك من الآن إلى منتهى السّنة الماضية.

حرّر في غرفة البلاء سنة 1890

الإمضاء : دوكارنيار، قيصر الشّقاق

مرشد الأمة، العدد 22، 1907

يزرع في أفندتها بذور الحيرة، ويلزم لأجفانها السَّهاد، إذ تتوقَّع أن يسطو عليها عادي الهلاك والفناء، أو الذلَّة والعناء، مثل ما جرى لبقية العجم التي غرَّها العلم بزخرف تملَّقه الكاذب، وتسويل تمويهه الباطل، لأنَّ تقبُّله على الرُّحب والسَّعة كما يصلح ما فسد منها بحكمه الباهرة، وأنواره السَّاطعة، وفقهه أساليب السَّعادة والكمال، حتَّى إذا ما شرب مياهها العذبة، وتغذَّى من مأكليها اللذيذة، ونام في مضاجعها المنبسطة، وتفسَّح في بساطينها النَّضرة، جعل يضابقها ويزاحمها في كلِّ ما منه التَّمعُّش والافتيات، بل ويعمل لابتعادها عن ديارها، وطردها من مراقده آبائها إلى حيث الزَّوال والوبال، ناكثا عهده، خالفا وعده، زائغا عن الصِّراط المستقيم، قائلا تعسا لمن خدع تلك العلَّة في إساءة جوارها للدَّخلاء من مواطنها، وعدم اغتطاطها السَّكك الحديدية بأراضيها، وتسهيلها الطُّرق بنواحيها، وبنائها المواني بشواطئها، ومدِّها الأسلاك البرقية ببراريها، وتمهيدها الأمن بين أهاليها.

يقال لم يسبقه شيء.

قال باز لمكاتب العرفان : إننا معشر الوحوش نرى الخير في الوعورة، والمنعة في الصَّعوبة، والاطمئنان في المحافظة على العتيق، ونعتقد أنَّ الشرَّ كلَّ الشرِّ، والبلاء كلَّ البلاء في إيجاد ما من شأنه تكوين العلائق مع من يضممر انصراعنا، ويصرِّ على إفزاعنا، ولا يهمُّ إلَّا بتقيض قصدنا وخلاف مرادنا من كلِّ ما يفسِّ ذوق الاستقلال بالمشية والوحدة في الرأى. انتهى كلامه. وهو صريح في أنَّه لا شيء أجلب للمخاوف والأخطار من تيسير تلك الأسباب التي ربَّما تفتح للنوائب بابا يعسر سده، فتتوالى الرِّزايا، وتتفاقم النِّكبات، فيوهي النَّفوذ، ويبيد السُّلطان، وتقلب الظُّلمة ضياء، والأرض سماء، فتتكشف أعشاشها، وتنفُض وكناتها، فتسبي أفراخها، وتصبو هي إلى البراح، فتخلى البلاد من أهلها. يؤيِّد هذا ما تقوِّه به أحد وزراء الأوابد في جلسة خصوصية تحت رئاسة السُّرَّحان، إذ خطب بما خلاصته : تأخذني الرَّعدة والدَّهشة عندما نتذكَّر ما نزل بالخیل والبغال والحمير، ومدِّ يد الطَّمع لها تحت ستار هاتيك المقدِّمات السيِّئة (أعني البخار، والتَّلغراف، وبقية شرائط النِّظام) حتَّى إذا تمكَّن من انصياعها له، سخَّرها للرتَّوع في فيافيها، ثمَّ

حملها ما يلزم لترميمها من الصخّور العظيمة، والأدوات الثّقيلة الخارجة عن الطّرق، حتّى إذا أنهت على أتمّ شكل، أركضها في جوانبها لقضاء حوائجها، وسيرها في شوارعها تتنّ تحت عبء مآربه، إلى أن يعييبها الكلل، وينهكها الملل، حتّى لا تعود تقدر على النهوض، فيعتمد لأشجار كانت تأوي لها مقبلا ومبيتا، فيفتّت أكبادها، ويكسر أعوادها، ويأخذ منها ما صلب ملمسه، ومرّ طعمه، ويظلّ يضرب به في ذلك الطّريح من التعب، حتّى يمرضه أو يموت، وهو البريء من الآثام، البعيد عن الإجرام، الرّاضى بالمسكنة حظّا، المتأزّر بالخنوع، المجبول على السكوت ولوريق دمه وهدر، وأحرم من سائر الامتيازات الحيّاتيّة، ولو وُضع في عنقه السيّف، ولو جُوع الشّهور المديدة، ولو أضمي الأيام العديدة، ولو أصلي النّار الحامية. لا غبار أنّ تلك المزاعم من الوجاهة بمكان، فلا تتطرّقها وصمات التّهم كيفما يتفلسف الإنسان في فهمها، وتأويلها بالحمّاقَة بعيد، وتفسيرها بالطّيش غير سديد، فلم يبق إلّا إعطاء الحقّ لصاحبها، والتّسليم لما أدلى به، وليظهر ما يظهر من المكابر المخطّال، فإنّ ملاحظة هذا النّوع الشّريف من السّوائم صواب في صواب لا تقبل الخدش بحال. أمّا العلم، فمكلاف بالفتوحات، مقراع لأبواب المشاغبات، جزّاع من النّكبات، والحوادث الملمّات، حريص على اقتناء الأرض والسّمّاوات، وسيادة ما فيها من المخلوقات، مفتونا بالحفلات والاجتماعات، عشّاق لاقتحام المشاقّ في سبيل الرّغبات، فلا تصدّه العقبات، ولا يهاب الورطات، ولا يبالى بالزلّات، حتّى بين قومه وذويه، وعشيرته التي تأويه، فلا يقرّ له قرار، إلّا إذا أنشأ مشكلة، أو أثار فتنة، أو أحدث مقتلة تسير بذكرها الرّكبان، عملا بقول الشّاعر الحكيم :

إذا أنت لم تنفع فضراً فإنّما يراد الفتى كي ما يضرّ وينفع

لا كما عليه الصّنّف الأوّل من الهدوء المتوالي والسّكينة المسترسلة.

يروى أنّ سربا من القطا تنازع حيناً مع أبابل من حمام، أو أنّ فئة من الأسود واقعت يوم الخنازير مثل ما يتطلّع له العلم الذي لا يثبت على غير ما يوليه السّمعة المهيبة ويزيد في نطاق سيطرته حتّى يعمّ سيله الرّبّى، ويفيض كأس نصره على جميع العناصر، فيسوقهم بسياط من عذاب،

فيتقلّص ظلّ مناظره، فيرث الدّنيا بما رحبت، ويصبح القائل الفاصل في جميع نقطها على تتائي أطرافها.

هذا الأمل وإن كان خارجاً عن المقدرة ما دام الطّير له جناح يساعده على الركون إلى حيث النجاة، والطّلي له أرجل تمدّه بالفلاة، والدّثب له حكمة تحول دون العثرات، واللّيث بظفره ينجح في الهجومات، والحشرات لا تأمن دون انفصال الهامات، فإنّ صاحبنا العلم ليس بمخطئ في كلّ ما يدبّره، ولن يبرح عاكفا عليه، فإنّ ما يجهد فيه لبّه، ويعصر له قلبه ممّا لا يكون المرء امرئ إلاّ به، وهل من باعث على خلقه غير ذلك - وأيّ مرتبة تشرّتب لها الأعناق أسمى من تلك المنزلة، منزلة الاستواء على عرش الحياة - على أنّ المدنيّة والإنسانيّة لا يهشّا إلاّ لتأييده، فمن يرميه بالشّطط في سياسته فإنه فاقد للنّهى، جاحد للمحمسوس، لا يقول بجواز تعدّد الحق بين المتنازعين في شيء واحد كمسألتنا هذه (واللّهِ اعلم) فتدبّره بلبّ حاضر، وعقل صقيل... علماً

مرشد الأُمّة، العدد 23، 1907

لأجل الصحافة العربية

في الحساب اجتماع مديري الجرائد العربية بإدارة جريدة الحاضرة الزاهرة، والقصد من ذلك أعمال الفكر في إيجاد قانون لائق يكون عليه سير أولئك المتزاملين حتى لا تعود تتفرق آراؤهم في النقط التي يجدر الاتحاد عليها، وحتى لا يخاف أحدهم التعرض لما يجعل البحث فيه إسوة بالرصفاء الفرنسيين، وإجابة لداعي السداد. فإن الراشدين لا يكون لكلامهم موقع ما داموا هم غير فاعلين لما به يشيرون على الغير، ورحم الله امرءاً أطلق وثاق عبده من قيود الرق، ثم قام يخطب باستحباب العنق، وبيان ما يترتب عليه من الثواب والأجر ترغيباً للناس في تحرير الرقاب للقطع بتأثير مقاله على العقول، وتمكن وعظه من الرؤوس، دون أن يقال فيه «أيا من يداوي الناس وهو سقيم (أو) تأمرون الناس بالبر وتسنون أنفسكم (أو) لا تنه عن خلق وتأتي مثله» مثل ما تسرد تلك الحكم بعينها عند ما يقترح أحدنا التعاضد على أمر مفلح لأنه ما أحد إلا بما عمل، عكس ما نحن عليه في عهد الانقسام.

أجل، قد ارتكبنا إثماً في زمان مضى غير مأسوف عليه، أما اليوم، وقد أدركنا الحاجة لما نحن به أحرى، فقد اتخذنا التواصل صديقا، والالتزام رفيقا، ابتداء من الجلسة المنوي عقدها في اليوم المزمع عليه فصاعداً، وإن شاء الله ستكون مواد الموضوع المزموع على تصنيفه شبه ما يأتي :

الفصل الأول

رفع الضَّغْط عن القلم فيما يكتب جداً أو صدقاً، تخفيفاً لويلات التضييق السَّخيف، وترويجاً لمذهب الوزارة الخارجية السَّامي، وتحقيقاً لنواياها السَّديدة.

الفصل الثاني

مقاومة إدارة المعارف وإكراهها على نشر العلوم بين الطَّبقات الأهلية بعد استمالة الحكومة لإرادة ذلك، تزيينا لسمعة الجمهورية الفرنسيَّة. فأَيُّ مهمٍّ تأتيه دولة من دول الفتح أفضل من إخراج أبناء البشر من الظلمات إلى النور، إن لم يكن هو الذريعة التي تتذرَّع بها أوربا لقتل الإنسان، وخلاء البلدان.

الفصل الثالث (وهو المهم)

تعديل الضرائب الدَّولية أو قلب هيكلها بالمرَّة، تبعاً لما عليه ذوي الحياة عسى أن ينقص كيلو عناء من قناطير الهمِّ المقنطرة على كاهل الشَّعب التُّونسي، إذ يصبح الغنيُّ يُوَدِّي على قدر ما ملَّكه ربُّه من الرِّزْق بدون ضجر، والفقير على نسبة حاله فيراح نوعاً. وبهذه الطَّريقة المثلى، يمكن أيضاً أن يتوفَّر إيراد الحكومة أكثر من ذي قبل، فتعمَّ الفائدة للرَّاعي والرَّعية. أمَّا بقاء ما كان على ما كان، فلا إخال عمراناً يوطَّن نفسه على رضاه إن لم نقل على عدم التَّسرُّع لتلافي خطره المظلم وبلائه الثقيل، فليس من الصَّواب أن تكون ثروة شخص تربو على مئات الآلاف، وآخر لا يملك قوت يومه، ثمَّ تؤخذ منهما الجباية على السَّواء، بل ذلك محض غلط وخطأ تجب التَّوبة منهما، والاستغفار من أجلهما.

الفصل الرابع

امراعاة حقوق الوطنيِّين في التَّمَلُّك، والمتاجرة، والوظائف، والجرايات، لا على معنى تبجيلنا بجلال المناصب بدعوى (وقدم ربَّ منزل) أو الجامع بين اللَّغتين غالباً، أو دافع الدرهم ومنفق الخزينة، بل القصد

قسمة جميع ما تقدّم بين الأحمدى والمسيحي بقسطاس العدل
المصنوع في معامل باريس، حتّى لا يبقى لأحد الفريقين تذرّ يُذكر.

لَقِيتُهُمْ فِيهِمْ لَيْسَ قِيمٌ لَهَا قَالُوا بِهَذَا لَيْسَ بِهَذَا سَيُخْتَلَفُ فِيهِمْ
فَيُتَبَسَّطُ لَهَا لَهَا

الفصل الخامس

تنظيم الدّواوين المختلفة حتّى لاتحنق علينا الحماية لأنّها ترى من
العار الصّبر على الاعتلال، سيّما في النّظامات العتيقة الغير الصّالحة
التي أفتت المدنيّة بنسف معالمها منذ زمان.

كَيْسَ بِهَا قَالُوا بِهَذَا قَالُوا بِهَذَا قَالُوا بِهَذَا قَالُوا بِهَذَا

الفصل السادس

بناء القضاء على قاعدة الإنصاف من غير التفات للجنسيات والملل،
جريا على ما حكم به الإسلام النّصرانية الآونة الطّوال، أو اقتداء بحكم
النّزلاء بعضهم بعضا :

فالنّاس من قبل التّمثيل أكفاء أبوهم آدم والأمّ حواء
فإن يكن لهم في أصلهم شرف يفاخرون به، فالطّين والماء

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا رِجَالٌ لِّلِطَائِفِ بَيْنَهُمْ فِي هَٰذَا رِجَالٌ وَلَٰكِن تَقُولُوا إِنَّمَا

الفصل السابع

إلغاء النّقيصة التي عمّت بها البلوى بيننا (مناقشة الصّحف لدرجة
التّشاتم والسّباب، تلك الخطّة العوجاء، والشّيمة الشوماء).

لَقِيتُهُمْ فِيهِمْ لَيْسَ قِيمٌ لَهَا قَالُوا بِهَذَا لَيْسَ بِهَذَا سَيُخْتَلَفُ فِيهِمْ
فَيُتَبَسَّطُ لَهَا لَهَا

الفصل الثامن

الدّعوة لإنشاء الشّركات النّافعة، والتّحزّبات المفيدة، رجاء أن نصل
إلى الشّأن الذي بلغته الأمصار المهدّبة، والأقطار الرّاقية التي لا تخلو
حتّى من الفوضيين.

وَقَدْ أَرَكُمُ الْحَاجَةَ لَهَا تَعْنِي هَٰذَا أَرَكُمُ الْحَاجَةَ لَهَا تَعْنِي هَٰذَا أَرَكُمُ الْحَاجَةَ لَهَا

الفصل التاسع

الانتقاد على الذين أفضى بهم حبّ النّفس، والكلف بالذّات، لإيثار
الصّالح الشّخصي ولو بتضحية سعادة الجمهور، ولا أقول مثل الفلانيّين،
أولئك الذين طلبوا التّملق من غير باب، وراودوا التّزلف بلسان السّداجة

والخمول، حتّى فاجأهم التّقهر بجحافلهم، «وباغتهم الفضل بمعاوله»، وحثّ عليهم الخذلان بكلاكه، «واستقبلهم الخسران بقنابله»، فأصبحوا كعصف مأكول (من في الحيّ حتّى يذكر) !

بشده رسالنا را بصفه

الفصل العاشر

ردّ الشّبّهات التي يردّها المغرضون على ولائها لولاة الأمور، وحسن انقيادنا لهم حتّى لا تقرن مطاعنهم بتأثير، ولا أخصّص (دوكرنيار) أو مسيو (موجو) فالله يعلم، والنّاس تفهم !

الفصل الحادي عشر

الاتّفاق على ذمّ البدع التي أحدثها غلاة الأمّة ثم عدّوها من أصول الشريعة، وهي من ذلك أبرى من ذنب يعقوب، تطهيراً للمعتقدات من أدناس الأوهام، والزّيف عن الصّراط السّويّ.

الفصل الثاني عشر

إشهار مثالب الطّغاة، وتعنيف العوتات تقليعاً لينابيش الرّشوة من قلوب ملّؤها الظلم والاستبداد، «والعوج والفساد».

الفصل الثالث عشر

تقبيح المفاسد بجميع أنواعها، قماراً، وسكراً، وخيانة، وغدرًا، والإسراف في المأكّل والملبس، حتّى لا يبقى للفجور أثر بهذه الأنحاء.

الفصل الرابع عشر

المناصرة على سلب أرباب النّظر تخويل الانتخابات الشّوريّة إن هم أولوها لعديمي الكفاءة وذوي العلائق معهم.

الفصل الخامس عشر

قصرّ ما ينونا من الخدمات الإداريّة وغيرها على ذوي اللياقة والعلم

تسمى بالتمدين، أو المقلدين، أو حضرات المتفرنجين، هو لبس الطربوش بدون عمامة، ورفع الخيزران بكل ضخامة، فالتأزر بالمحدد من العباب السود الكائنة من حرير (ليون) لا من منسوج الدود، فتحلية الصدور بالسلاسل الذهبية، والساعات السويسرية، فانتعال أحذية الأوروبائين، فحلق الخدود والعنانين، فهجر لغة الأبوين، وقصر التخاطب على لسان الأجبيين، سيما أمام من لا يفقه له معنى، ولا يعرف له مبنى، ثم أكل الطرائف، بأنيق المغارف، (الفرايط) فوق الحوائل والرّخام، على ممر الخاصّ والعالم، مع اتّخاذ حاجيات المنزل ولو المرود والمغزل، من دكاكين الأحرار، لا من محلّ المخفّار، المهجور بغير أوزار، الخانع للجبار، الذّاكر اسم القهّار، لكون أوانيه فخّار، ومهاده صوف وأوبار، وخشب تتخطّاه الأغيار، على أنّه لا يشطح بمقدار...، فالجلوس في القهوة الإفرنجيات، فشرب عتيق المعصورات، فمغازلة الغانيات، ومداعبة الفتيات، ولو في محاجّ الطرقات، أستغفر بديع السماوات، بل ولو في مجامع الصلّوات، إذ أنّهم ينكرون العبادات، وما شيّد لها من البناءات، ويحتقرون الواجبات، ويستهانون بالمسنونات، ويلعبون بالمندهيات، ويسخرون بالمطلوبات، لأنّ حالهم ناطقات بقولهم:

التمدن

أرحام تدفع، وأرض تبلع، ودنيا باقية، غير متناهية، والجنة المال، والحرام الحلال، والنار الفقر، والعذاب العسر، والإيمان الكفر، والطول العرض، والسكون النّبذ، ولا فخر إلاّ بالزّنا، ولا مجد إلاّ في الخنا،

والسَّعادة في القمار، والنَّعمة في سماع المزمار، والبسطة في مشاهدة الطَّار، مرفوع على أكفَّ الأبكار، يلتقطن به الدِّينار، من حبيب الدُّنْف المحتار، في تجلِّي ناحلات الخصور، من سماء القصور، لافتتان البشر، بعيون في حور، ووجوه كالقمر، ولم يقف اتِّباع هذا المذهب، ومشاة ذلك المسرب، عند ما ذكرنا، وحدَّ ما قدَّمنا، بل يحكمون أيضا ببغض المتزملين، ومناداتهم بالمتوحِّشين، في كل آن وحين، ولهم عوائد أخرى، ونوادر كبرى، لم تحضرني الآن، وسنأتي عليها في بعض الأوان، إن ساعد الزَّمان، فإنَّ التَّديد، من واجبات العبيد، حتى يفكَّ من قيود الأسر، ويجحون في كلَّ أمر، والله يتولَّى كيد الجاحدين، النَّصح للمسلمين.

التمدن في الاصطلاح

وأما التَّمَدَّن في الاصطلاح، فهو الخضوع لأوامر الشرع، والوقوف لدى نواهيه، وله أركان، منها : العلم أخروياً كان، كالتَّوحيد، والفقه، والتَّجويد وآلة ذلك، أو دنيوياً : كالمعارف الحربيَّة، والفنون الطَّبيَّة، والكِماويَّة، والهندسيَّة، والحسابيَّة، والتَّاريخيَّة، والجغرافيَّة، والفلكيَّة، ونحو ما ذكر، حتَّى لا يحتاج المتَّصف به لغيره في شيء من الأشياء، ولا يبقى لسلطان الجهالة على العقول من سبيل.

ومنها الحرِّيَّة بأن يكون الفكر مطلق العنان، يقبَّح القبيح، ويحسن الحسن، بدون أن يخشى وشاية الرَّقيب، وزجر التَّأنيب، لأنَّ بذلك تتكشف أسرار، وتتفضح أعوار، وتنتهك أستار، يعلم الرِّبَّ ما وراءها من الفساد المستحكم والعوج المبين، فيخاف الظَّالم، وينجزع الجارم، فتخفَّ وطأة الجور، وتسود الشُّورى، ويموت الاستبداد، ذلك الدَّاء المكين، والمرض الدَّفين، والسَّلَّ الكمين، المتأصل في نفوس كافَّة الخلق.

ومنها المساواة، تلك الأساس المتين الذي أقيم عليه هيكل العمران، ومعنى ذلك أن يكون الشَّخص في ذاته غير مغموط الحق، ثم هو في

نفسه حكم عدل لا يميل للاستثثار لا بالمراتب وما اتّصل به، ولا درس أسباب الحياة، ولا إلى داعي القضاء ولا غير ذلك. ومنها الإخاء، بأن يحبّ المرء لأخيه ما يحبه لنفسه، حالة كونه مجرداً عن عوامل البغضاء والحسد، ناهجاً مناهج التّواصل والاتّلاّف، متجنّباً مظانّ الضّغائن والاعتساف، شدّاداً لحزم بني جلدته، معيناً لهم في السّراء والضّراء، لا يرتضي بينهم نزاع، ولا يشخّ عليهم بمتاع، ويأبى أن يكون سهماً يصيبهم، أو نبلاً يهينهم، أو باتراً يضرب أعناقهم، أو لما يتخّن قواهم، إسوة بما كان عليه السّلف الصّالح، إلّا الخلف الطّالح.

ومنها السّعي بأن يكون الرّجل حازماً نشيطاً، في روحه الكدّ، وبين جوانبه الجدّ، لديه البطالة حرام، والتّقاعس من أكبر الآثام، يواصل ليله بنهاره فيما يكسبه النّخوة، ويسمو به على ذرى الشّرف، يخدم الأرض حقّ خدمتها، ويربّي الحيوانات حقّ تربيتها، ويُنمّي التّجارة حقّ تتميتها، ويُنظّم الإدارة حقّ تنظيمها، ويُنمّق الصّناعة حقّ تنميقها لتحظى بالإقبال والرّواج، وتبعد عن ساحة الكساد والإمّجاج، فينتفع وينتفع به، ويعاذ من الدّين وما يترتّب عليه من المقت والفقر، وما ينشأ عنه من الهمّ.

ومنها الاقتصاد، بأن لا يسرف المنفق في عيشه، ولا يتغالى فيما يلزمه من القماش المنشستري، والقرمسود الهندي، والكور المكيّ، والبرنس البردي، بل لا يتجاوز ما عليه الأوساط، فإنّ البذخ من أسباب الخراب، والتّبذير من مقدّمات الدّمار، ولنا العظة البالغة في تاريخ الأندلس المنبئ بأن لا باعث على انقراض أهل الجزيرة غير الانغماس في الشّهوات والملاذ، على أنّهم لم يصلوا الغاية التي وصلناها، فلم نجد في أخبارهم ما يثبت أنّ أحدهم بلغ به التّفاني في تبديد الحطام لأن يرهّن عقاره، أو يبيع داره لوليمة الختان، أو العقيقة المعروفة، حتى لا يعود بتلك قوت يومه، كما وقع لبعض التّونسيّين لأعوام خلين، بل ولا ما يفيد أنّ أرباب الثّراء فيهم ينوّعون الغذاء إلى عشرين صنفاً من الطّعام والإدام والخضر والبقول، والعشاء إلى خمسين ضرباً من ذلك، طبق ما هو جار عند الكثير فينا، ممّا يقضي بالعجب لبقائنا مع هذا الحدّ، وسقوطهم لذلك العهد.

[illegible]

من السماء إلى الأرض في آذار سنة 1259

أخي العزيز، الخالص خلوص الذهب من الإبريز، صاحب جريدة المرشد الغراء دام عزه. السلام عليكم، أما بعد :
فقد مضى على الفقير زمن لم ير اسلكم أثناءه نبيا عن أحوال ساكني الكواكب وما يجري بينهم من الحوادث الهامة والمسائل ذات الشأن التي لو نزل عشر معشارها بأبناء البسيطة لصار النهار ليلا زاحفا، والهواء سيلا جارفا، والماء العذب أجاجا، بل ولتصدعت الجبال من هوله، وأصبح المعمور خلاء من أهله.
أخي، لم يكن ذلك منا لنكث عهد، أو إبطال وعد، وإنما هي الأيام تفعل ما تشاء، والأقدار تحكم كما تريد، فقد طرأت على العبد أحوال لم تخطر له ببال، وإليك نبذة مما جرى، منزّهة عن الزيف والمرى، رجاء أن تكون بها المعذرة، فتواجهني بالمغفرة.
غادرت ناسي، وفارقت مسقط رأسي، لثلاثة أشهر خلين وأربعة أيام آخرين، فحدث لي في أثناء هذا التجوال، وغضون ذلك الترحال، أن نزور قارة الاستبداد، وعاصمة الاضطهاد، للإشراف على سير حملة العناد، وما يأتونه من البغي والفساد، لأنّ النفس كما لا يخفاكم تتطلّع لأنباء الشرّ، كما تتوق لذكر البرّ، فامتطيت قطار الأصيلان، المتوجّه من زحل إلى الكيوان، فلم تكن إلاّ عشية أو ضحاها، وساعة من سواها، حتّى ظفرنا بالمرغوب، ووصلنا للمكان المطلوب،

وثُمَّ طَفقت أَجوبَ أعماقِ البلادِ، لِإِبلاءِ العبادِ، وكشفِ الأسرارِ، واستقصاءِ الأخبارِ، فساقني المَرورِ، إلى حيثِ شامخاتِ القصورِ، فاقتربت من بابٍ، فإذا بقعقة كصوتِ السحابِ، أو هي أَجزعُ وأَنْزعُ، فدقَّ قلبي، وطار لُبِّي، وخيَّلَ لي أنْ جاءَ الزَّلزالُ، وأذنتِ الدُّنيا بزوالِ، ومازلت بينَ هذه الأخطارِ، وهذاك الاندعارِ، حتَّى خرجَ عليَّ رجلٌ زنجيٌّ وبِئْمَناءَ بطاقة خضراءَ، وفي يَسراه ورقة حمراءَ، هذه مكتوبٌ بطرفها (ادخل لتَحظى بالمثولِ بينَ يدي القيصرِ، وتسعفُ بما تشتهي من الميسرِ) وعلى واجهة تلكِ، (لا ترتاع ممَّا تبصرِ، وإياكَ وتغييرِ المنكرِ، كي لا يطرقك الردى، ويذهب سعيك سدى، وتكون كالساعي بظلفه لحتفه). فمكثتُ هنيهةً أَتدبَّرُ في عاقبة هذا الخطبِ المنذرِ، ثمَّ تقدَّمتُ والخوفُ ينهبُ الكبدَ، والفؤادُ في كمدٍ، فما جاوزتِ المراقِي، حتَّى بلغتِ الرُّوحَ التَّراقي، وإذ ذاك أَلفيت قاعةَ فسيحة، وخميلةَ مليحة، ذاتَ أنهارٍ منهمرةٍ، ونسيمٍ تلينُ البشرةَ، فأزيحُ بعضَ الوجفِ مَنِّي، وشعرتُ براحَةٍ في بدني، فتماشيتُ في ذلكِ البلاطِ البهيِّ، والرَّوضِ الشَّهيِّ، فنما اطمئنانِي، وتحقُّقُ أمانِي، ولم يبقَ لي إلَّا أَلَمُ الأتْعابِ، ووحشةُ الاغترابِ. وبينما أنا على هذا النَّشاطِ، وذلكِ الانبساطِ، إذ ظهرَ السُّلطانُ في أَقرانه، للتَّزَهُ بِبستانه، ثمَّ لانتِصافِ المظلومِ مِنَ الظَّالمِ، والمكَلومِ مِنَ الكالمِ، فما كدتُ أنْ أشاهدَ المشهدَ، يَوْمَ ساحةِ المقعدِ، حتَّى أَخذني الخجلُ، وخامرني الوجلُ، وبقيتُ على خَلَّةِ القبضِ، أنتظرُ برهةَ العرضِ، إلى أنْ حانَ الوقتُ المعلومُ، لفصلِ القضايا والخصومِ، فتشكَّلَ المجلسُ من قَسيسٍ، وعضوين ورئيسٍ، اسمُ الأوَّلِ التَّعيسِ، وكنيةُ الثَّاني النُّحيسِ، ولقبُ الثَّالثِ إبليسَ، فلم تكنْ إلَّا لحظةَ عينٍ، حتَّى دسَّ لي بعضُ المعريدينِ، بأنَّ أولئكِ الرُّعَماءِ، والقادةَ العظماءِ، فتهيَّأتِ للتَّفَرُّجِ، وجعلتُ أَتدرِّجُ، بتماهلٍ طويلٍ، وخَطوٍ ثَقيلٍ، إلى أنْ انتهيتُ لأَمَكَةِ المَجْتَبينِ، ووقعتُ العينَ على العينِ، فألَفيتَ بينهم شِبحاً طرفه طالعُ الصَّبَحِ، ووجهه في غايةِ القبحِ، وبعينه اُحورارٌ، لكنَّها كَشَعلةٌ من نارٍ، فاستقَهمتُ من هذا - فقيلَ لي لماذا - فصَحَّتْ ما هَجرتِ الأوطانُ، إلَّا في سبيلِ النُّجْدانِ، فأجبتُ بأنَّ هذا المقدَّسَ المشهورَ، حضرةُ الأَمبرورِ، فدَنوتُ من رجليه،

وقبّلت نعليه، واستمنحته العفو على ما صدر منّي من التّقصير، في التّدلّ لمقامه الكبير، فالتفت التفات الخالع، ونظر نظرة الأسد الجائع، وفاء (بأنا الجبّار، أنا القهّار، ومن يكرم الشّقيّ، ويظلم البريّ، ويواصل الفجّار، ويقطع الأبرار)، فوقع ضجّة وهزيز، ورجّة وأزيز، ثم أشار الحراس، على جميع النّاس، أن اسكتوا وابكتوا، وأوعز لي أن نقعد في الحاشية، فقعدت لأكتب ما نشاهد، فامتثلت وهيأت المحبرة والقلم والمسطرة، وبقيت أترقّب أزمنة الإبرام، وأونة الأحكام، إلى أن اعتراني الظّماء، وأوشكت الشّمس أن تقف في كبد السّماء.

وقتئذ نشرت نازلة غريبة، ذات أدوار عجيبة، وهذه صورتها ورمّتها :
لزم الدّولة تصدير أمرين، وتوظيف شخصين، فجاءها ثلاثة رفاق، كلّ يدّعي الاستحقاق، فكلفت من ينتخب جعابهم، ويفحص وطابهم، ليجتبي الأكثر علما، ويرقي الأزيد فهما، إسوة بما عليه الأمم الفائقة، في الكليات الرّاقية.

فلما كان الامتحان، وآن الإكرام والإهان، افتضح واحد لفهأته، وقلة نبأهته، وفاز بقصب السّبق اثنان، وأحرزا على جائزة الرّجحان، ثم رفع ما عليه الحال استقرّ، لأولياء التّصرّف والنّظر، وكان بين هؤلاء الآخرين، كثير من الشرّة اللّحيدين، فأوحوا لذلك الجاهل الطّريد، والخامل الفقيد، أن أفرغ علينا ما شئت من العين، فنقلدوك إحدى الخطّتين، والضّامن على بلوغ الأمل، فداحة الحيف المخلّ، فما سمع الغمر مقالة الظفر حتّى رهن الضّياع، وباع المتاع، وفعل الحرام، واستجمع الحطام، وكان على ما روى العارفون، ألف درهم أو يزيدون، ثم ركب رتل العشا، وجاء مأوى الرّشا، وأسلمه ذلك المال، بدل تحقيق الآمال، فما انسلخ ربع عام، حتّى بلغ هذا السّافل المرام، وقهقر فارس الرّماية، وواجب الولاية، أعني أحد الأوّلين، والسّادة النّاجحين.

هنا بهت الحضور، وحشرجت الصّدور، وانقطع اللّجاج، وأبعد اللّفيف الى خارج الرّتاج، للمفاوضة في كيفة القضا، وعقاب صاحب الاقتضا، وتبرئة الأخيار، والتّكيل ممّن كان عن بذل العرف قصار، ثم دارت بينهم كؤوس اللّمز، وأشهروا على بعضهم سيوف الهمز، واستقبلوا ذوي

النزاهة، ببنادق السَّعَايَةِ، فكانت نتيجة الفصل البعث برسول الغز العشرة
 من الوزراء، وما ضلّ رأيهم وما افتري، سوى اتقائهم أسباب المهالك،
 وابتهاجهم واضحات المسالك، والتَّجَافِي عن مظانّ الخيانة، والتَّغَالِي فِي
 حفظ الأمانة. ...
 أمّا السَّارِق اللّثِيم، والجارم الأثِيم، مكوّن الفعل، وناشئ الشّنعَة، فقد
 بقي في المنصب، على ما له من المرتّب، بدون ما لحقه عتاب، أو تناوله
 مرّ الخطاب، لكونه...
 فليفقه الأريب، وليتدبّر اللّيب، في فهم هذا الحكم العجيب، وما
 احتوى عليه الرّمز، من طرائف الغمز، فإن التلويح، أبهر من التّصريح،
 والحقيقة يفضلها المجاز، والإشارة لها ينتهي الإعجاز...
 مكاتبكم الخصوصي
 بالسّماء الرّابعة

مرشد الأُمّة، العدد 33، 1907

الغاية من الحجّ اجتماع الموسرين، والوجوه من الأمة، للبحث في شؤون جامعتهم، وأمور سياستها واجتماعها وتعاونها، وتدارك أمر الفقير بالزكاة المفروضة على كلّ مسلم، بحيث إذا أداها المسلمون على حقّها، لم يبق في الأمة فقير، وجعل نبوة أبدية للإسلام، ويكون القرآن كتاباً عربياً يتحتم على كلّ مسلم أن يتفهّمه بلغته العربيّة، وإذا لم يكن في هذا غير أنّ فهم العربيّة حتم على كلّ عالم وإمام، يكفي به جامعة لسان للمسلمين.

ومهد طريق النبوغ لأفراد الأمة، بكون المسلم لا يفضل المسلم إلاّ بالتقوى، فكان الإسلام جمهوريّة حقيقية، يختار المسلمون رئيسها الذي هو الخليفة.

وقد ساروا على هذه السنّة حيناً من الدهر، ولن تزال المبايعة بالخلافة رمزا من رموزها، وسهّل اعتناق الإسلام لغير العرب بقوله «لا فضل لعربيّ على أعجميّ، ولا لأعجميّ على عربيّ إلاّ بالتقوى»، ويسرّ لغير المسلمين العيش برخاء في بلاد الإسلام بقوله «الخلق كلّهم عيال الله فأحبّهم إليه أنفعهم لعياله».

ونظر في أمر «العائلة» فرتّب أمور الزّواج، والتّناسل، والتّوارث، ورفع من شأن المرأة، وعاد إلى الأمور المدنيّة، فوضع قوانين وقضاء للنظر في شؤون الأفراد.

ولم يهمل مالية الدّولة، بل وضع سننًا لبيت المال. وكان للعلم من همّه نصيب وافر، فجعل الحكمة ضالة المؤمن، وأوصاهم بأن يطلبوا العلم ولو في الصّين، فكان لهذه الوصيّة شأن عظيم في اقتباس المسلمين العلم من كلّ أبوابه، وازدهاره في أيامهم. أفلا يكون الذي فعل كلّ هذا في ذلك الأمد اليسير، أعظم الرّجال في العالم؟

مرشد الأمة، العدد 38، 1907

فذلكة

أو

الوطنية هنا وهناك

حقيق ما قالوا من أن الألفاظ لا تدلّ على المعاني إلا من حيث الاصطلاح، ولذا رأيت كلاً يضع ويدوّن ما شاء له الاتفاق. ولا لوم ولا عتاب. نعم، قرّر المنطقيّون في دواوينهم في الدلالة وجوه أربعة، وجعل المتكلّمون من المعتزلة الأسماء تابعة للأحكام، واصطلح البديعيّون على جواز إطلاق الألفاظ على معاني يراد بها عكس المقصود... كما تباينت اصطلاحات النحويّين بتباين الخطوط وبعد المواقع، كنجاة النجف الأشرف، إذ قيسبت ببعض ما دوّنوه من القواعد على الكوفيّين والبصريّين... إذا علمت ذلك، فقس عليه نعوت الوطنية عندنا والوطنيين على الشرق، وكن طاهر الذمّة...، واغفر لبعض صحفنا في تفنّنها بالوصف، ولذّذ سمعك بنغمات ذكرتها للشبيبة التّونسيّة، والنشئة الجديدة، والنّابتة المفكّرة، والهيئة الوطنيّة، وزعيمها العظيم، ورهطها الكريم، وكرّر القول ولا تقل عن تلك الصّحف ويحها فيما تكتب، فإنّها تصلب في الأمّة على أمّ رأسها بخلاصة اللفظ، وهو ضرب من الإغرار والخداع، وقد قرّنوه في التحذير بالشّرك بالله.

ولا تدع عنك ذكر النّياشين والوسامات، واحتفاء أولئك بذلك، ورقص الجميع على تلك النّغمات، فإنّا قدّمنا تبياناً بأن أولئك ذلك هو الغرض

من أعمالهم، ولذا كان سيرهم منذ زمان في ذلك السبيل، ولطالما حملونا على صهوات الغرض، وما غرضنا إلا بيان ما يكتّوه، ورفع اللثام عنه، ولا أقلّ بثس ما يسرون.

نعم تقلّدت أفراد من ذلك الرهط، كما قالوا، وسامات الشرف فاهتزّت أعطافه فرحا وامتنانا، وأقيمت له المآدب في غير ما ناد، وتليت الخطب في ذكر المزايا وعدّ الحسنات، فقبولت بالهتاف والتّصفيق الحادّ...

وكأنّي بهم وقد غفل الخطباء لدى ذكر آيات الرّعيم فتوحاته، ومعاهد العلم التي أشادها، والمدارس الخاصة التي أقامها، فإنّها لجديرة بالذكر، وحرية بالتّمجيد. وأكبر من ذلك تلك الوليمة التي قدّم فيها لعساكرنا قصاع الكسكسي بعد إيابهم من فتح بيضاء الديار. وعندي أنّ إغفالهم لذلك لجناية على الحقيقة لا تُقبل التّوبة فيها للمستتاب. وهبهم أنّهم بالغوا في الموكب والحقوه بمواكب الفاتحين.

وكجنايتهم على الرّعيم في ذلك كانت سيئاتهم مع مصلح التّعليم العربي، فإنّهم سكتوا عن دحض تلك الشُّبه التي تُلصقها بجنايه ذوو القرائع الجامدة، والرؤوس المقرّطة، العدوّة لكلّ جديد من أنّه بإصلاحه هذا و«بروغرامه» ذاك، يحاول أن يرفع القرآن الحكيم من الصّدور، وإحلال محلّه أشعار يزيد ابن الوليد، وقصص مجنون، فيخفّ على التلميذ قول عنترة العبسي:

ولقد ذكّرتك والرّماح نواهلُ منّي وبيضُ الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيّوف لأنّها لمعت كبارق ثغرك المتبسّم
ويستعذب معناها عن قوله سبحانه وتعالى «قل يا أيّها الكافرون لا أعبد ما تعبدون» إلى قوله جلّ ذكره «لكم دينكم وليّ دين».

ويسهل عليه التّغني بقول الشّاعر فيمن غرّته الطّواهر:
ألم أقلّ لك أنّ القوم بغيتهم في ربة العود لا في ربة العود
لا تأسفن على الشّاة التي أكلت فأنّت سرّحتّها في مرّتع السيّد

ورد أنّهم أغلفوا حسنة كبرى لجنايه، ودرة ثمينة أفلوها من عقد محاسنه الثّمين، ألا وهي (بروغرام) التّعليم في مدارس البنات

المسلمات، فإن لهذا المصلح النصيب الأوفر في وضعه أثابه الله..
ولذلك حريٌّ بأن يلقَّب بمصلح التَّعليمين، رغم أنف الجامدين الذين
تشاءموا منه وادَّعوا أنه قبر الفضيلة والعفاف، بل مرسح ستمثِّل فوقه
روايات فساد الأخلاق والنزوق والطَّيش، قياسا على البنين في زِيَّهم
وحديثهم، وهوة للدين واللغة والعوائد.

ولكن كيف بنا والاكتراث بأهل الجمود فيما يقولون ويكتبون، فدعهم
في تديّنهم، وهوسهم، وعوائهم، وأخلاقهم، وعفافهم، وحجابهم،
وفكرهم العتيق، وعش حراً، واحتفل بالمصلحين، ولا تنس قاموس اللغة
الدَّراجة وتدوينها على نفقة المعارف، فإن ذلك من أكبر حسنات
المفكرين!

ذلك ما ننعي إهماله على الخطباء، ولنستدرك ما الذمّة عامرة به من
الطَّرب والفرح والارتياح لما صنعوا، ونشاركهم في السرور، وأستغفر الله
من سوء فهم بأن سرورنا كان لا عن وجدان، أو أننا بطرنا هذا نريد أن
نغيض زعيم الأحرار أحمد رضا بك، فيتسرَّب له الندم من زده على كلِّ
من مليكي البلغار والضرب، وساماتهم الكبرى، وعن حكومته كسوة
الوزارة بسيفها المرصَّع صونا للزعامة واحتراما لنعوت الأحرار، متعلِّلا
بأنه عاش حراً، ويكبر عليه أن تسترقّه المن والمزايا وتستهوِّيه نعم
المنعمين. ثمَّ حاشا لله أن نقصد تهيج شجون زعيم المصريين ووطنيتهم
الكبير (فريد) السَّجَن وهو في وثاقه فيغبط نعم زعمائنا.. ويندب حظّه
(أستغفر الله) حيث كان تجمعه وهؤلاء وحدة الألقاب والنُّعوت.

ولرفع هذا الظَّن السيِّء صدرنا كلمتا هاته لمن يجهل، أن الألفاظ لا
تدلُّ على المعاني إلا من حيث الاصطلاح، حتَّى يكون عن بيّنة من جزاف
القول، ويدرك الفرق هنا وهناك في المصطلحات.

مرشد الأمة، العدد 49، 1907

وعلّمتي مله تشجعتنا أنا مله نسمع به عاكه ديت زيه : ليش لقيه
تبعثوني لاجل يمشي به عاكه : بالهولاء لا اله الا الله نزلنا بالهولاء
(بالهولاء) لانه بالهولاء مله (الله) تشجعتنا لانه بالهولاء لانه بالهولاء

في عالم الخيال

محادثة بين الوطن و«دوكارنيار»

- الوطن : مرحبا برجال العلم والحزم أبناء أم الحضارة باريس.
- دوكارنيار : سمعنا وسخرنا، ولطفك ما شكرنا، وسنستأثر بخير أمصارك إن كثرت أمثالي ونفذت أقوالي.
- الوطن : عهدي بكم دعاة العرفان، ومبشّري العمران، لا تقصدون من الاستعمار، الغنيمة والأدخار، بل صفوة آمالك، وخلاصة أعمالكم، القضاء على الهمجية حيثما حللتهم، وطرد الوحشية أينما نزلتم، فما هذه اللّهجة المقلقة يا ابن التمدن والنظام ؟
- دوكارنيار : إنّ ما نقلته عن أبي، وعليه اليوم مذهبي، سلب المستضعف من سائر الحقوق البشرية، وأن لا تسمع له شكوى، ولا تقبل له دعوى.
- الوطن : تالله لم أر ما أحقق منك يا هذا الرجل، أنت لست من أمة تشين سمعتها القساوة، ويحطّ من كرامتها التظلم، فما هذا التّجاهر الدّامي أكبادي، والجارج لعواطف أولادي، وهم لحمايتكم، وتحت رعايتكم، فإن كان هذا فكر شعبك، ورأي عنصرك، فيا بقائي على جهلي، ويا شقاوة أهلي !
- دوكارنيار : من سوء طالعي وحسن حظّك أن انتهجت معك مناهج العناد، لتكون هدفا لسهام الاضطهاد، فلم يصحب سعي نجاح، وذهبت رغباتي أدراج الرياح، وبقيت أنشد (إذا عظم المطلوب قلّ المساعد).

- **الوطن :** عجيب، ألك بغية بعد الاستبداد بمرازقي، والاستقلال بمرافقي، وإتقال كواهلي بضرائب لا تدخل تحت حدّ، ولا تقف عند عدّ.
- **دوكانريار :** نعم، لأنّ جوار قومك ضرر، والاختلاط معهم خطر، ولا خير لنا معاشر الدّخلاء من إجلائكم لخلاء الصحراء، ومنقطع الغبراء.
- **الوطن :** مهلا أيّها المحقاد، فلقد أخطأت في اقتراحك، واعتسفت في مطاحك، فإن الإسبان ما جرّهم للهبوط، وأودى بهم للسقوط، إلّا ابتعاد الأندلسيّين عن الجزيرة الخضراء، حيث ذهب لذهابهم صوالح، وأقبلت بفراقهم طوالح، أفضت إلى كساد التجارة، واندثار الصّناعة، وتوقّف دواليب الانتفاع، بل واستلال حكومة مدريد من مصافّ الدّول العظمى وقعودها في المنزلة الأخيرة منهم، بعد أن كانت ذات الهيبة والسّلطان في العالم الأوروبي، وعلى العكس ساست إنكلترا مستعمراتها بسياسة اللّين والمساواة، فأصبحت أفضل الأمم قوّة ونظاما، وأرسخها قدما في ساحة البقاء. أترضى يا عدوّ الإنسانية أن تقتدي فرنسا المتمدّنة بالإسبانيّين ضعفاء العقول.

- **دوكانريار :** لو كان لي رأي من الجمهوريّة لا أحبّ لي من تسخير ألك، ونهب أموالك، ولكن نصرائك أكثر من أعواني، وأصدقائك أوفر من إخواني، فلا أقدر الآن إلّا على ثلب فضائلك، والأخذ من أعراض أجلائك، والتحرّش بهم صباحا مساء، ولسوف نفلح إن لم يباغتني الفوت، ويفاجئني الموت.

- **الوطن :** متى تصحوا من هذا الخمر، وتتبهوا من ذلك السّكر، فنعيد معك الخطاب، علّك تهتدي للصّواب، فلا تعود تتسرّع لتبكيّتي، ولا تتساهل في تعنيّتي، على أحقيّتي، وقوّة حجّتي، إزاء ضلالك، وشنع أقوالك.

- **دوكانريار :** إنّي صائب، وإنك غائب، ومن الأسف أن تشارك في الشّورى، وأن توهب الحرّيّة في إبداء ما تريد، ثمّ تمنح التّعليم وتقول هل من مزيد ؟

- **الوطن :** فيا لكثرة أحزاني، وتوالي أشجاني، أحنّك انخراطي في سلك الحكّام، والتّفرّج على صадرات الأحكام، فالقول قولك، والفصل

فصلك، والأمر أمرك، النّهي نهيك، فما حضوري معك إلاّ حضور الذّئب مع الأسد في قصّتهما المشهورة، وقصّيتهما المسطورة. وأمّا مسألة التّعليم فغبني فيها أكثر، وهضمي منها أظهر، لأنّ الدّولة أزمعت فيما روي عن تلقين صناعتي التّجارة والحديد دون الصّناعات الأخرى من الفنون السّامية، كالكيّما، والطّب، والحقوق، وأشباه ذلك ممّا لا رقيّ للحياة بغيره، ولا دعة للعيش بسواه.

- دوكانريار : ما أعطيته وولته ممّا سبق تفسيره، وتقدّم تقريره، فيه ما فوق الكفاية لك لأنّه يصيرك ذا متاع وفهم، وبه تتميز عن العجم والبيكم، وتلك غاية ما يرمي له الأخذ بيدك، والجِدّ في تمكينك من مرادك، فإن جنحت لغيره فتكون مرتكباً شططاً، وناهجاً غلطاً، ولربّما يملص منك ما تضمّرت من صغره وجمحت لكبره.

- الوطن : أوّاه ! لقد حلفت النّفس الخبيثة أن لا تخرج من الدّنيا حتّى تسيء لمن أحسن إليها، انفطر كبدي من محاورتك، وأهاجت همومي مناقشتك، رغماً عمّا واجهتك به من الحفاوة والمواساة، حتّى انقلب حالك من العسر إلى اليسر، وبدل ثرائي بالفاقة والفقر، أنتم قوم تقابلون النّعمة بالنّعمة، والمزّة بالنّكران.

- دوكانريار : لا، لا، وسرّة العذراء، فقد أفدنا أكثر ممّا استفدنا، أفلا تتنظر إلى الطّرق كيف سوّيت، وإلى السّكك كيف بُنيت، وإلى التّلفّافات كيف نُصبت، وإلى الإدارات كيف شُكّلت، وإلى المدائن كيف بُلّطت، وإلى الضّرائب كيف جُبيّت، وإلى النّفوس كيف أُصّبحت في اطمئنان وأمان، بعد أن كان هذا القطر خلوا من جميع ذلك ؟

- الوطن : بالحقّ، ذلّتم المسالك الوعرة، ولكن لتساعد عرباتكم على السّير والجولان، والرّكض والطّيران، وصدق، أنشأتم القطارات، ولكن لجرّ منقولاتكم بأبخس ثمن، ولتعبئة جنودكم في أقلّ زمن، وثابت، أقمتهم بهمة الأسلاك البرقيّة، ولكن للتّخاير في شؤونكم، والتّشاوّر في أموركم، على أيسر وجه. وواقع، نظّمت الدّواوين وأبدعتم في تنسيقها، ولكن لتقليدكم مناصبها، واختصاصكم بمراتبها. وصحيح، هدبتم الشّوارع، ولكن لوقاية أحذيتكم من الطّين، ونجاتكم من الوحل المهين، وحرّي،

توصلت لاستخلاص الأداءات بآتم أنواع الحكمة، ولكن لتصرفونها في مساكنكم، وملابسكم، ومشاربكم، ومنازلكم، ثم ما بقي على ما ترون فيه سداد، ولا جحود في سيادة الراحة بأنحائي، والسكينة بأرجائي، وحتى الحسب والنسب، ولكن كيف يخاف من لا ذنب له سوى التغالي في الطاعة والمبالغة في الولاء.

- دوكارنيار : على كل حال، أنت تابع لنا، والتابع قد يشارك المتبوع مدة كونه لم يقطع.

- الوطن : دعنا من هذه الخزعبلات الفارغة، والمغالطات الباردة، واستمع لما يتلى عليك مما ننشده في الأيام القابلة، من أمتك العادلة : (1) نرجو نشر المعارف بين الأهالي، وتشديد المدارس اللازمة لذلك، حتى لا يكون للجهل على التونسي من سبيل.

(2) نرجو التخفيف من المجابا، فإنها ضريبة فاحشة لا يحتملها ضمير، ولا يحمدها الجليل ولا الحقير، ولكونها على خلاف ما هو جار حتى لدى فرنسا نفسها.

(3) نرجو رفع الضغط عن القلم، ليتسنى له استنهاض الهمم، وتغنيف المجرم، ونقد من يستحق النقد بدون ما يخشى رقيب، اقتداء بالصحافة الباريسية أو المصرية على الأقل.

(4) نرجو التسوية بين المسلم والأجنبي في الخدمات من غير تفضيل جنس على جنس، وصنف على صنف، وعفا الرب عمّا سلف.

(5) نرجو تماثلهم في الجراية، لتماثلهم في الخلقة والحاجة والعمل.

(6) نرجو مراعاتنا، في مخلفات أجدادنا وآبائنا، الأرض وما اتصل بها لكونها السبب الوحيد لارتزاقنا.

(7) نرجو الرفق في القضاء إن ابتلي أحدنا بمنازعة أجنبي، ورفعت نازلته للمحاكم الفرنسية لأن تاريخ هذا الباب غير مرضي.

(8) نرجو احترام شعائرننا، وتوقير ديننا ما دام فينا ودمنا متمسكين بحبله المتين.

(9) نرجو الإقلاع عمّا يحلّ الذرائم ويثني الهمم في كل مشروع عام، مثل ما نزل بالوكلاء لما رغبوا من الدولة المصادقة على قانون

اجتماعهم، لأنَّ المقام مقام تشجيع وتنشيط، لا مقام إحتباط وتثبيط،
 اللّهم إلّا أن تكون إرادة فرنسا على خلاف ما تزعم، وخاشا أن يكون
 ذلك، وهي الخرزة اللمعة في تاج الحرّية والوفاء. (10)
 نرجو تتبّع أعمال العمّال، وإعطاء الموضوع حقّه من التّدقيق حتّى
 لا يشاطر العامل معموله في إنتاج الأنعام، ومهر الإسلام، وحتّى لا يمكن
 لهذا المتفرد بالنفوذ أن يتسلّط على من عرفوا بالثراء من رعيته،
 فيستزف أرزاقهم، ومن لا يذعن لذلك يعدّ مشوشاً للرّاحة، فيلحقه من
 العقاب أشدّه، والعذاب أمره، لأنّ صوت المروّوس إزاء صوت الرّئيس هو
 أشبه شيء بالعدم إزاء الوجود. (11)
 الشّيء بالشّيء يذكر: بيّشت في هذا زبائن عمّال مشغولين (12)

حدّثني رجل من جزائر الأقيانوس، أنّ العامل [الوالي] لديهم يجبر
 شيوخ الجباية على أن ينقدوه كذا وكذا، وألّا يخابر من هو فوقه بأنهم
 فاسدي السيرة، عديمي السريرة، فأسرع ما يعزلون فيبيع وظائفهم بثمان
 معروف، وعدد مألوف، وهكذا إلى أن يجد من يرضي فعله الرديء وأثره
 السيء، فيثبته على تلك الخطّة، ذات الصغار والخطّة. أنا ما صدقت بما
 أسلفت، ولكن ذكرت ذلك حذر الوقوع فيه، فإنّ الحزم أولى من سلامة
 النية.

(11) نرجو تلقين المعمّرين ندب مجاملة العرب وملاطفتهم، وبعبارة
 أوضح، وقيل أفصح، حتّى لا ينتهج الأولون مع الآخرين مناهج الغلظة
 والفظاظة الموجبان للوحشة الدائمة والتأخر المستمر، بل وسفك الدماء
 البريئة، وضرب الخطايا الفادحة على ذوي الجوار من التّونسيين لأقلّ
 مخالفة تصدر، كدخول حيوانات الوطني أرض الدّخيل لغير قصد الرّي
 والرعي، وإنّما لفظة الراعي وأشباه ذلك ممّا يعسر التّحرّز منه، والتّجيز
 عنه.

(12) نرجو تقديم اليد الأهلّة عن غيرها متى كانت ذات اقتدار على
 القيام بالأشغال الدّوليّة، كالترميم، وكسر الحجارة المقصور نفعهما اليوم
 على أبناء إيطاليا بعيدي الدّار والفائدة، فإنّنا أولى بمرافقتنا على أن
 بؤسانا في حاجة لذلك، وفيهم من صحيح المزاج، المعتدلي البنية،

القادرين على أن ينجزوا في الساعة ما لا يتمه الأجنبي في اليوم، كلهم مئات وألوف، فما اضطر الصّاعليك للبغي واللّصوصيّة إلّا عدم التّجرب والبطالة الناشئين عن اختصاص السيّليان بخدمات الأشغال العامّة، ولولا أولئك (الببلوش) لأصبحنا في غنية عن نصب المحافظة، وإقامة القصور الشّامخة لإيواء العساكر الكثيرة خشية انصداع أركان الأمن العام.

(13) نرجو بناء دار خاصّة تحشّر فيها جماهير الفلّاء، من الأيتام الفقراء، ومن هو في حكمهم، وتعليمهم، وتهذيبهم، لأنّ ترك هؤلاء المعوزين على تلك الحال، حال الجهل والإهمال حفاة عراة، مؤذن بأيلولتهم عثاة جناة، لا يكفي لدرء ضررهم تضاعف البوليس عاما فعاما أو شهرا فشهرا، ولا تؤثر عليهم الزّواجر بحال، لأنّهم إذا وصلوا حدّ الحلم، يجدون أنفسهم على أسوء حال من الفاقة، فيكبر عليهم يومئذ السّؤال، وإراقة ماء الوجه في سبيل ما يقتاتون فيلجأون طبعا للحريّة وقطع الطريق، ويزيد خطرهم بتزايد الأيام، وتكرّر الأعوام، لأنّ جزءا كبيرا من النّاس من هذه الطبقة طبقة الشّقاء والغناء. (14) نرجو جمع أولئك الشّرذ في مكان مخصوص، وتثقيف أذهانهم بشيء من آداب الحياة من المصلحة العامّة الواجب مراعاته في آن وحين.

(14) نرجو الاعتناء بما تنفّق له من الاجتماعات الجليّة، ذات المقاصد النّبيلة، لأنّ التفات أولياء الحلّ والعقد للمشاريع من أسمى المنشطات على المثابرة وأعمال الحزم. والسّلام.

هل إلى الرقي من سبيل ؟

لقد أسفر حديث مضى لنا، وكان لهذا الحديث صدر من حقيقتين لا مرأى فيهما، بل مقدمتين لا قضية سنفيض الكلام فيهما، هما شعور عموم المسلمين بما حاق بهم من سيئات ما كسبوا، واختلافهم في الرأي أي سبيل للنجاة يسلكون. ولقد حدا بنا الحديث إلى الإفاضة في ولع المسلمين بالخلاف حتى في أخرج المواقف وأضيق الأوقات، وكذلك حقت عليهم الكلمة، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، فإنهم يعلمون أن الرقي المادي نتيجة السعي والأخذ بما أخذ به الأقوام، ولا يعصم من شروره إلا التحرز بحرز الآداب الدينية التي أرشد لها الكتاب المبين. فهل بعد هذا لأحد هذين النوعين توقف على الآخر، أو بالحري هل يكون نصيب كل منهما من الاهتمام في الوقت الحاضر على السواء، أو أن أحدهما الأخرى بالتقديم أن لا يجادل أحد في أن الأفعال مهما كانت قيمتها لا تصدر إلا عن وجدان نفسي تابع للتربية العامة والتلقين بالتعليم، وأن التعليم ليجمع بين المختلفين في أساليب التربية، فيجعلهم أشبه ببعضهم من كل شبيه. ولما كان المسلمون قد أصابهم من سيئات الشقاق والتدابير ما أصابهم، وهم اليوم أحوج ما يكونوا إلى باعث بيعتهم على سلوك سبيل الارتقاء الحق متحدين، فهل لذلك من واسطة غير توحيد التعليم، وبذلك يتضح جليا توقف أحد النوعين على الآخر، وأن سلوك طرق الرقي المادي قبل الوصول إلى غاية في الرقي الأدبي عسير، وإن كان ممكنا وبالعكس النتيجة إن لم يكن عقيما. بقي النظر في

هذه القضية، وهي توحيد التعليم بين المسلمين، هل للنفس في تحقيقها من طمع، وهل أسبابها مهيأة، وهل يقوم دون الوصول إليها من عائق عتيق ؟ لا أتوقف في الجواب عن جميع تلك الأسئلة بإيجاد وشرح بيت القصيد، ذلك بأن الله ورسوله يأمران جميع المسلمين بالائتلاف والاتفاق، ويحذرانهم مزالق التفرقة، وقد جمع الله المسلمين في اليوم وما قبله على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فهم، وهم بضع وسبعون فرقة تدين بما ذكر تطأطى الرؤوس إذعانا، وهذان هما جماع الخير ومنبع الرشيد، وإذا وصل الفكر إلى هذا الحد، يرقص طربا إذ يرى فواق الناقة أبعد من رقي المسلمين، ولكن تجاوزها هذا الحد يحدث له رد فعل يخور معه عزمه، فيسقط في اليأس واهيا، حيث يقف أمامه عائق عتيق، وذلك هو كثرة الأعداء وقوتهم الفائقة الحد، وتيقظهم لكل بادرة ينتج عنها صلاح المسلمين.

إن المسلمين في سائر الأقطار قد تقاسمهم غيرهم، فهم بين استقلال مستبد، أو استيلاء غريب، وكل من هذين ضنين بما غنم منهم، فلا يغفل عن أقل شيء يضعف ضغطه عليهم حتى يستأصل شافته، ولا يدع سببا أوقعهم في يده، حتى يحرص على استدامته حرصه على سيادته. وما المستبد إلا حافظ أمين على تلك الغنيمة التي وقعت بين يديه حتى يستلمها من يده للغريب، وهي على تربية العبيد.

وهذه الحكومات بين مستبدة وغريبة، قد اتخذت لها أعوانا قلّدتهم أوسمة العلم ونياشين (المعارف)، وأبرزتهم للعامة حتى يكونوا مقام التقليد، فكان هؤلاء حربا للمسلمين، ومانعا من ائتلافهم، ومشنعا على كل من جاهر بهذا القصد بأنه ملحد عدو للمسلمين، فلا تلبث الحكومات أن تؤيّدهم لأنهم يؤدّون لها أجل خدمة، ولا تلبث العامة أن تزدرى بما ألقى إليها لأنه ضد إرادة ساداتهم من أولي الأمر وأهل الدين. وهكذا تذهب صيحات المرشدين، ونصائح المصلحين، دون صدى، ويذهب جهدهم سدى، وما خصمهم إلا من عرفت. وربما بحث الناظر عن سبب وقوف هؤلاء سدا في وجه كل إصلاح، وهم أحق من قام بدعوى الإصلاح لمكانهم من الدين. فأقول إن لذلك سببين : أولهما

الاعتقاد بأن شكر المنعم واجب، وأن الذي أجلسهم على الوثير، وألبسهم
 من الحرير، ورفع منزلتهم، وجعلهم يعيشون عيش المترفين، لخليق بأن
 يكونوا حراس عرشه، وحفاظ عيشه الذي هو أصل عيشتهم، ولعلهم
 يرجعون إلى الحق يرجعون إلى العيش الضيق والشظف الذي كان
 يكابده السلف، وذلك ما يرجفون لذكراهم، وربما خرج بعضهم عن منصبه
 لسبب، فرأيت منه من الأفكار ما سرّك وتمنيت أن يكون ذا منصب حتى
 يكون للإصلاح خير ظهير. هذا أضعف السببين وأقواهما شعورا، أكثر
 هؤلاء بالقصور عن درجة العلم الحقيقي وضعوبة اعترافهم بالحقيقة ما
 داموا علماء رسميين، فغالطوا أنفسهم كما غالطهم أولي الأمر، وأنفوا
 من ظهور ذي حجة لقصورهم مبينا.

أقول ما أقول، غير قاصد فردا أو جمعا خاصا، ولكن هو وصف لمن
 اتصفوا بالعلم قديما وحديثا، إلا أهل العلم من خير القرون، فقلقد كان
 العلم على عهدهم غير رتبة يمنحها الولاة للذوات، ولكنه حكمة يختص
 بها الله فريقا ممن جاهدوا في سبيل تحصيلها، وكانوا يطلقونه على أهل
 الرواية وأسرار التنزيل، وكذلك كان العلماء أحرارا في الاستنباط
 والفهوم، وكان العوام أحرارا في الأتباع والتقليد، ولكن ملوك الاستبداد
 لما رأوا أن الدعاوي السياسية لم تتركز إلا على أصل ديني، اضطروا
 إلى إيجاد قوة تؤيد ما هم عليه من جليل الأشياء وحقيرها، فتجعله
 للدين أصلا، ويوفق بينها وبينه ولو بالتمحل في التأويل، ولن يرضى بهاته
 المنزلة الدينية إلا ذو البضاعة المزجاة في العلوم، فإن العالم الذي
 أشربت نفسه عزّة العلم لا يرضى أن يخدم غرض جاهل تلقاء قليل أو
 كثير من الحطام، وإنه ليلقى أشدّ صعوبة إذا رام أن يخالف ضميمه
 ويأتي أمرا نهاه عنه ما تلقاه. ولم يخل قرن من الأيام الخالية بعالم يقوم
 بإنكار ما يرى، ويجهز لتلك الفئة أنهم على ضلال، وما هو إلا أن يرن
 صدى مقالته في آذان الملوك الذين يضرهم قوله، فيجردون عليه جيشا
 من أولئك الذين ألبسهم العلم، وقلدوهم تاج (المعارف) إذا كانوا يوقنون
 أنه لا يغني عنهم في تلك الغارة سيف ولا سنان، ولا يفك أولئك عن
 مطاردة الحق حتى يخفت صوته ويستقر في أذهان العامة أن أولئك

العلماء يجاهدون في سبيل الدين، وهم يجاهدون في سبيل شهوة الحاكمين، ويقوم لديهم في بعض الأحيان الباعث الآخر على مطاردة أولئك المحققين، وهو خوف رجوع أولي الأمر والعمامة إلى مرجع أولئك النابغين، فيفقدون منزلتهم التي تبوأوها عن غير حق، ويظهر جلياً عليهم القصور، فأرهبوا الحدّ استعداداً لتلك الطوارئ ونصبوا الإسلام على أسنة أعلامهم، وقالوا إماماً التقليد لكل ما ترون، وإلا فليس إلاّ الحاد وزين وضلال، دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الاستدلال. ولئن سألتهم عما يقصدون من إشهار تلك الحرب العوان، ليقولون إنّنا حماة الدين، وإنّه ليوجب علينا تغيير منكر رأيناها، ما لهم لا يغيّرون ما بين أيديهم من المنكرات، بل بالعكس تراهم قائمين عليها وبها يأمرّون. ألم تر أنّهم يبصرون الشموع كالأساطين والمصابيح الألوف تسرج، ونور السراج الوهاج يضيء ما بين اللأتين ؟ ألم تر أنّهم يبصرون المباخر الفضية توضع في مجالس أحاديث الرسول (صلوات الله عليه) وهو ينهى عليها وهم بها رضوان ؟ ولكنّ هذه المنكرات الصريحة لا يسيؤهم مثلما يسيؤهم من ينادي بأنّ الخلاف بين فرق المسلمين يمكن تسويته، وأنّهم لو أحسنوا المناظرة لما اختلفوا، وأنّ تنديد بعض هذه المذاهب ببعض في غير محلّه ولا ينبغي الإقرار عليه. وإنّ من قام بهاته الدّعوة وقرع بها أسماعهم وهي كما رأيت أقصى ما يتمنّى المسلمون لا يكون جزاؤه منهم (أي من هؤلاء العلماء) سوى رميه بالاعتزال، بل بالمروق والزّين والإلحاد، والاستدلال على ذلك لديهم هيّن إذ لا يتجاوز حكاية منامة رآه فيها مسودّ الوجه، متغيّر الحال كما بلي جمال الدّين الأفغاني (بسميه) وكما بلي به الشّيخ محمد عبده بمجنون بيروت، وكما بلي من قبلهما الغزالي بمن لا يصلح أن يكون شراكاً لنعله فرموه بالزندقة والإلحاد والكفر والاعتزال (لاعتقادهم وأنّ الاعتزال منقصة) ويطلقون كلّ هاته الألفاظ على شخص واحد مع علمهم باختلاف معانيها، ولكن حيث كان الباعث على قذفها الغيظ والعداء، لا يرون حرجاً في جمعها في كنانة واحدة إذ جعبة الغضب أوسع من جعبة الحقّ، ويجرّوهم على ذلك مركزهم الذي يجعل كلامهم مقبولا ويأمنون به مناقشة الحساب.

ألا لقد سار القلم شوطا بعيدا في هذا الميدان حتى أشفق الفكر على القارئ السّامة والتّشتيت، وما كان القصد سوى التعريف بأنّ السّبب الذي يقف في وجه رقيّ المسلمين هو قوّة أعداء ذلك الرّقيّ، وبيان أنّ أهل الأمر هم أصحاب الفائدة من تفهقر الأمّة، وهم الذين أوقفوا لسعيهم حدودا، ولأفكارهم جنودا ممّن ذكرنا، فهم المؤاخذون الأصليون، وأنّ جندهم من أولئك ليعملون على قدر عقولهم ولم يصلوا إلى مرتبة تعرفهم بالحقّ حتّى يكونوا إذا لم يأخذوا به مؤاخذين، بل ذلك مبلغهم من العلم والحياة الدّنيا وغاية ما يطلبون، وإنّ منهم لفرقا يكتمون الحقّ وهم يعلمون، وما أولئك إلّا قليل.

ذلك العائق الذي شرحناه هو الذي حجر بين المسلمين وبين ما يبتغون، فهل من مطمع في زاوله، وهل إلى الرّقيّ من سبيل ؟

مرشد الأمّة، العدد 34، 1911

الوطن للوطنيين

كان التلّفُظ بطالع هذا الفصل وما شاكله في المعنى محجورا في العصور المظلمة والقرون المطلقة النّفوذ، وكبيرة لا يُعذر لافظها بل يُقاد إلى الجزاء عليها بمواقف الرّجَر والعقاب، وذلك مذ كان الإطلاق في الحكم مقام الهياكل، والأمم تسبح في الجهالة فتساق مقيدة بتلك الإرادة القاسية فاقدة لكلّ اختيار، إلى أن أيقظها العلم والشّعور بالحقّ الطّبيعي للإنسان من حيث كونه إنسانا ولد حراً، فتضامنت على نفس تلك الهياكل الجورية وأسقطتها على رؤوس القياصرة وملوك الإطلاق، ثمّ أشادت على أطلالها الجمهوريات الحرّة أو الملوكية المقيدة التي لشعوبها حقّ الإشراف على أعمال الحكومات، فضربت الشّورى سرادقها، ومدّ الدّستور أجنحته على البشر، فأصبح الضّعيف وذو الحول والطّول في الحقوق سواء، فيطالب ذاك ذا فيجد النّصفه منه، ثمّ ارتفع الحجر، وساغ للمسود عليه أن يقول وطني، وأنّه الأحقّ بالاستشارة فيه، والجدير بأن يشاطر في منافعه السّائدين...

وأوّل ما أسمع عذوبة ذلك المبني (واشنطن) عندما أبعد غزاة الإنكليز عن وطنه، وجعل في طالع مسنونه أنّ أمريكا للأميركانيين، فاستعذبتها الأفواه، واسترسلت في ترتيلها، حتّى كادت أن تلحقها بالإيالات المقدّسة المرواة على الحوارتين، فلا تسمع من أفواه نصراء الإنسانية ومحبّي الحرّة إلّا أمريكا للأميركانيين، وإيرلاندة لإيرلانديّين، وكندا للكناديّين، وأستراليا للأستراليّين، ومصر

للمصريين، وتونس للتونسيين، والهند للهنديين، وبلونيا للبولنديين، وطرابلس للطرابلسيين، والصين للصينيين، والسودان للسودانيين، إلى غير ذلك من الأماني المستعذبة لدى كافة شعوب الأرض الذي يشارك ضعيفها قويها في حقيقة الإنسان... ولتأييد تلك المبادئ المقدسة وجدت الاشتراكية في الأمم الحرة بعد وجودها في الإسلام، وقامت دعاة الإنسانية تصارع العسف بالمغلوب، وتدعو إلى وجوب الأخذ بيده حتى يلتقي به في مجمع طرق السعادة والرفق، وتصد أكاسرة الاستيلاء عن تسخير النوع البشري لشرف الإنسانية فيه.

وقد زادت تلك الأماني نشاطا في شعوب الأرض تضافرهم في هذه الحرب الشعواء لصدّ الجبروت على العبث بالإنسانية، وعن استعباد البشر، وكان النصر حليف الحق فيها، وطوى الدهر دفتاره المملوءة أهوالا قاساها بنو الإنسان في ذلك السبيل، ثم تتوَّعت تلك الأماني في الشعوب إلى تحرير واستقلال أو مسامرة إلى الرشد، أو طلب دستور يضمن مساواة المتساكنين، كل على حسب الرقي فيه، ومبلغه من الإحساس والعلم. وقد أسعد الحظّ بذلك أمما لا على تعب، وعلى الإثّر أخرى منتهجة تلك السبيل، وغايتها الوصول إلى المبتغى. فهل للشمال الإفريقي في تلك الحظوظ من نصيب؟ نعم في القواعد المقررة لدى الإنسانيين أنّ الجزاء على قدر الأعمال، والجميل يقابله الجميل، وإنّ أصول من ألقى الدهر إلى أحضانه هذا الوطن الذي تجاوز في القيام بواجبه نحو الحاميين الحدّ المطلوب هي عين الأمثلة التي قرّناها آنفا، فهل لا يعدّ محققا إذا طلب كتلك الأمم دستورا يضمن له تحقيق إجراء تلك الأصول وتنفيذها، فتتبادل المنافع بين من تقلّهم سماءه على السواء، وتلحق أبنائه بالحاضنين؟

لا جرم إذا عقدنا الخناصر على تحقيق إجابته إلى ما طلب، وإسعافه فيما رغب، لأنّ الولاء المطلق في نظر الأحرار أمر ثمين جدّا، ويقدر عظم مقداره يكون نكرانه، والمجئ للمخلصين على عكس ما يرجونه. وهل في الإخلاص ريب مع من اجتاز خطّ (هندبورغ) الجهنمي، وشارك في ردّ الجرمانيين إلى داخل حدودهم، صونا لحرمة الإنسانية

والحق، وذودا عن حياض عاصمة المدينة باريس من أن ينال الجبروت منها، وقد أصبحت بعد ذلك مجمعا لنواب ضعاف الأمم تستجد أحرارها لنيل كلّ شعب ما يستحقّه من ثمرة ذلك الانتصار العظيم، فتراهم من كلّ حذب لها ينسلون. *والله اعلم بالصواب*

فهي اليوم تضمّ بين جدرانها المشرفة، وأدوارها المنيعّة من يمثل التونسيّين، والمصريّين، والألبانيّين، والأفغانيّين، والإيرانيّين، والترك، ودعاة العرب، والهنود، وأهل التّركستان، وكلّ من استضعف في الأرض، لنيل رغائب هاتيك الشّعوب *لدينا بيتة بيضاء، وبيتة خضراء، وبيتة حمراء*

نعم، كيف لا تقصد العاصمة الجميلة لذلك الغرض الجليل، وفي كلّ ساحة عمومية منها ترى تماثيل الحرية مقامة تتجلّى بجمالها للنّاظرين. وهل بعد ذلك ريب في الحصول على تلك الأمانى الشرعيّة، وفي الجمهوريّة الأحرار من يؤيّدنا في ذلك، ويحتّم الأخذ بأيدينا، وخطبهم الدّفاعيّة المشفوعة بساطع البرهان مسترسلة. وقد أحدثت صدى حسنا على الضّفاف الإفريقي ونشطت الآمال. *والله اعلم بالصواب*

ولولا ذلك لعل الصّبر، وتضايقت الأنفاس من الصّخب الذي تصدّعت به الأذان، بتوالي اجتماعات حزب الاستعمار، وتقريره تسخير الوطني في خدمته وترك شأنه بأجور تنبئ على عهد العادّيين، ثم طلبه إحياء ما كان يظنّ ابن الوطن التونسي أنّه مات بموت (دوكرنيار) الذي لو لم يكن جيّة هامدة لاعترف بفساد مذهبه مع الوطنيّين لقيامه على قاعدة أنّ المصلحة الاستعماريّة تعاكس المصلحة الوطنيّة على خطّ مستقيم.

ولكن لا عجب إذا التمسنا عذرا لذلك الرّاحل الذي ودّنا أن لو طال به الأجل إلى اليوم في بناء مذهبه على وهم من أنّ الوطني غير مخلص، وأنّه يترىص الدّوائر والفرص. وقد جاء عام أربعة عشر، وبان من التونسي ما أسلفناه من وقوفه المواقف العسرة، ومشاهدته للموت الأحمر ألوانا، واستغراق عدد النّحايا منه عشرات الآلاف. *والله اعلم بالصواب*

وأنّ معلّقات الشّرف الحربيّة قد رسمت شجاعة أولئك العساكر في دواوينها والكثير واراهم حيّر القصد والإتلاف... إذا فأيّ وجه بعد يسوغ لـ(بلتي) زعيم ذلك الحزب الرّجعي إحياء تلك الأطلال البالية والمذهب

العقيم ؟ أو ليس الأصلح بسياسة الجميع أن يشاطرنا في تحقيق رغائبنا بقدر ما قسمناه المحن والغناء .

فقد قام بدل ذلك يطلب ذلك الرّعيم تجديد تلك المضايقة المبيدة كلزوم أخذ الأحباس الخاصة لفقراء الجالية بعد تسجيلها، ثم إلزام إدارة الأوقاف أن تسجل كل وقف يقع في المستقبل حتى يكون الاستثمار على بيّنة منه...

ومن الصّدف الغربية توافق الرّغائب الارتجاعية في الشّمال الإفريقي شبرا بشبر، وذراعا بذراع، فقد ضرب على أوتار (بلتي) ذلك المؤتمر الذي التأم بعاصمة الجزائر المتركب من شيوخ العواصم والمدن والقرى، وقرّروا بلا خجل وجوب الرّجوع بالوطنيين إلى حالة ألفوها قبل الحرب، وتعوّدوها من نحو مائة عام، من سلبهم الحرّية التي منحوها لوجود المسوّغ للحكومة وقتئذ. أمّا اليوم وقد ولّى ذلك الزّمن المخيف، فلتسحب الحكومة ما اضطرت إليه (من باب صلّى وصام لأمر كان يقضيه)، ولتعمل لإحياء ما اندثر في بحر تلك السّنين من تجديد السّلطة الزّجرية، وإلزام الوطنيين بالاعتقال في محلّ معيّن، وإحالتهم على محاكم العقاب (بريسيف)، وإرهاب العشائر الرّحالة باتخاذ التدابير العسكرية، وإلزامهم برخص الجولان، وإبطال حقّ الاقتراع للأهالي، والتّقليل من عددهم في المجالس البلدية، مع تكثير عدد الأروباويين في الدّوائر المختلفة، وتجديد حقّ التّفتيش للجندرمة محلات الأهالي بدون توقّف على إذن عدلي، إلخ... ما قرّروه من الحيف والإجحاف، وأن لا يرخص للوطنيين وعددهم الملايين إلّا انتخاب شيخ أو قائد بشرط أن تتوفّر فيه شروط حسن السّلوك (يعني أن يكون وطنياً بشكله فقط...) قرّروا ذلك وهم في الحيز الأخير من طامة هذا القرن، ولم يتولّاهم الخجل ممّا قام به الوطنيون نحو بلادهم من جلائل الأعمال ومشاقّها. ولو طوى الدّهر هذا الجيل، وجاء جيل آخر، وأبى أن يكلف نفسه مراجعة التّاريخ، وطلب تلك المطالب المشينة لعذرناه، أمّا وهؤلاء قد حضروها بأنفسهم وشاهدوا أعمال الوطنيين، فما المسوّغ لهم يا ترى ؟

بالأمة: تعليم، واقتصاد، وإصلاح، وحرث، وتجارة، واستخدام، واستفادة من ضرع وزرع، ثم اندماج ودخول في العادات والأخلاق، مع أن الدستور هو وصف، والأوصاف تقال على أفرادها بالتشكيك، فإن ما في فرنسا غير ما في أمريكا، ودستور إنكلترا لا يشبه ما في إيطاليا، وهكذا ما عند الدول الصغرى، فلا يصدق بالمعنى الواحد من سائر جزئياته. كما أن الدستور يوجد أيضا بالمستملكات، والمستعمرات، وبلاد الحماية، وقد أعطي بلا طلب ولا إلحاح، ففي الكاب دستور في الكندا برلمان، وفي البوير نظيره، وفي أستراليا ما هو بين ذلك النظام: وإن جميع تلك النظامات يقال عنها أنها دستور، ويطلق عليها أنها دستور، ويطلق عليها ذلك العنوان الأنيق، ولا اتحاد في جميعها، بل مراعى في وضعها حالة الأمة، والرقي في البلاد. على أن تونس قد أعطيت دستورا من قبل فتعطّل، وأن تعطيله غير حجة على عدم وجوده كما أشارت إليه الفتوى الشرعية التي تهكم بها ذلك المذبذب في بعض نشرياته، وطعن في عظيم من عظماء فرنسا حيث قال أنها تكلفت على الأمة ببعض أوراق من نوع ألف... ولم يدر أنها طعنة في نحره، وإن تلك الفتوى أثبتت وأن لا منافاة بين الدستور الداخلي وبين حقوق الحماية وحكم الحماية بالمعاهدات، *بشأن ما إذا يتفق، فالمعنى ينص لنا أنه لا يلقاها حيث لا* على أن هذا الخصم اللدود، لا أخاله يستطيع أن يجاهر بقوله أن الذي أعطي بلا طلب ومنع ذلك النظام في هاتيك الأقاليم، هو غير الأمة التي أنتم لها تشكون، ومنها تطلبون لأنه قول مردود، لا يجاهر به إلا (تريدون) [Tridon] ومن كان على شاكلته من أنصار الاستعباد، وعشاق التصرف بقهر البشر، لأن فرنسا أكثر مدنية من إنكلترا، وأوفر إنصافا من ذلك العدو الأثيم الذي خدع الشرق بتسامحه الداخلي، وتركه للشعوب تتصرف في نفسها بنظام نيابي، بل وتوسع بأن جعل لأملاكه ومستعمراته نوابا في جمعية الأمم التي بعضها دون تونسنا الجميلة، وهي منه من النظر السياسي المتسع الذي يرجح به نفوذه في ذلك المجتمع الدولي العام، *بشأن ما إذا يتفق، فالمعنى ينص لنا أنه لا يلقاها حيث لا* ونحن إذا طلبنا نظاما يصد علينا هجمات المتعشقين لسياسة الإكراه،

يقول عنا إننا مشطون في الطلب إرضاء لبعض الإداريين الذين لا ينظرون لصالح دولتهم بنظر السداد، مع أنه المتطفل والتأخر والبعيد. كما أن أرباب النفوذ الأعلى بفرنسا لا يرون مانعا في مساعدة الشعوب المحتمين بهم، والذين انتدبوا لهم بإيجاد الحكم الذاتي فيهم لظهور الإخلاص في الأولين عند الشدائد، ويرون أن لا أجمل من سلوك سياسة الاستيلاء على العواطف التي يدوم معها النفوذ براحة، وبلا مرابطة الجنود، سيما بعد أن أصبحت فرنسا دولة إسلامية عظيمة، فهي أجدد بذلك الميز الذي يكسبها سمعة عالية في مصاف دول التمدن والارتقاء، بل وتحققوا أن سياسة الإكراه لا توصل إلى الغاية، ولا يمكن بها الاستيلاء على القلوب، وقد انكشف لهم أن طلب سياسة الاستعمار هو الشطط الضار والمشين للسمعة المرغوبة في جلائها حسنا بالسير في المحكوم فيه على ناموس الإكراه والغبن الذي هو شنشنة ذلك الحزب وبغيته، لبعده عن الحكمة ومعاكسته السداد. فالدستور الذي تطلبه الأمة التونسية، وشن عليها الغارة (فلاتي الجزائر)، ولم يحتفل بمقاله، لا (تريدون) ولا (بلى) فضلا على الأمة (ولطفه في زعمه)، فما هو إلا قيد لمدير الفلاحة يحمله على اعتبار الأمة في برنامج حثي لا يغني بأراضيه القليل من النازحين بعطائه، ويفقر الوافر الكثير من الوطنيين بحرمانه، فيصبح عالة على السؤال كما هو في أطرفه ووسطه اليوم، وحاجز لمدير المعارف حثي يحاسب عن أعماله، ويخشى أن يسأل عن ضياع المدرسة الصادقية في تيار إدارته، ولا يقدر أن يعطل رخصة فتح مدرسة أهلية كما عطلها في باجة، وما حجت إلا الإطلاق في النفوذ... كما أنه موجب يمكن نواب الشعب من سؤال إدارة الأشغال عن إهمالها لكثير من القرى الأهلية بلا طريق عام، بينما نشاهد طرق الأشغال العامة اخترقت أراضي الفلاحين الأروباويين، والبريد في أثرهم، حثي قيل أن أحدهم طلب تزفيت الطريق الموصل إليه تفصيا من القتام التي تثيره عربته، فأجيب لذلك، وغيرهم في الأحوال يتعثرون. ونظام مقدس يرهبه مدير المال إذا سئل عن ضياع سبعين مليوناً، أو نقص أو إخلال أو احتكار لا يقدر أن يجيب بإحالة النقص على أبواب الصرف في

التموين، إلى غير ذلك مما يجعل الداخلية في مأمن من الإطلاق، وللأمة قسط من النقود. أفهذا يُعدُّ تطرّفًا يا أيها المعتدل، حتّى تقدّم برنامجك الذي جاء برهانا على أنّك في حرج الدّارية أو أضيّقها، شأن من يدعي ما ليس فيه، فينكشف في الموقف، ويفتضح في المجال، ولو أفرغ الجهد وأكثر من القيل والقال.

قدّم (فلّاتي) برنامجا ذا نقط عشر، قد ظنّ أنّه بجهاده في التّلفيق يفلت من المأزق، فأسرع ما سقط في القيدتين الرّابع والعاشر اللّذين هما، في صراحة، لا يشوبها إبهام في ضياع الوحدة والأخلاق والنّظام الداخلي للبلاد.

هذا وأنّ الذي يضحك التّكلي، اعتذاره من ظهور ذلك الاختلال في برنامجهِ وسقوطه فيه السّقوط السّحيق، أنّه منقول عن الفرنسيّة، وقد أخلّ المترجم بالمفهوم، وهو عذر أقبح من ذنب، وأنّ جنايته فيه أكبر من اعتبار اللّغة العربيّة عنده والنّظر إليها باحتقار، لأنّ الشّأن في الذي يقف موقفه، ويعلن عن نفسه أنه سيسير بالأمة والبلاد إلى مستوى الإصلاح، أن لا يحتاج في آرائه إلى ترجمان يكلفه الاعتذار.

قال (فلّاتي) في بعض نشرياته الأعجميّة: أنّ الوفد الأوّل الدّستوري كتم أعماله، والثّاني غير مشرب الطّلبات، إبهاما للعموم بأنّ ذلك رجوع إليه وأنّه الثّاقب العصيب... قال ذلك بملء فيه، والواقع خلافه، وإنّ حشر الأمة إلى خطيب الوفد الثّاني برحبة جامع الهوى في يوم مشهود، وإعطائها البيانات الكافية عن الأعمال بصوت جهوريّ، ومنطق رهيب، لحجّة دامغة، وقد نشرته الصّحف في الوقت نفسه، وعلمه الخاصّ والعام، وكان الجميع من أعمال الوفدين في امتنان.

أغفل (فلّاتي) أنّه طلب السّفَر مع الوفد الثّاني، فأبدى رأيا لا يفهم منه غير محاولة إحباط المساعي، وبعد جدال طويل، أحيل الرّأي على الاقتراع، فكان منفردا في رأيه، فقليل له: حسبك اعتبار الأغلبية، فأصرّ على العناد قائلا: أنّه لا يذهب ضدّ وجدانه وعكس ضميره، فكان ذلك اليوم هو أوّل يوم ظهر فيه بوجه مبتاع.

ثمّ بعد التّثام الوفد الذي ظنّ أنّه يُقّعه عن السّفَر رأيه، طلب أن يذهب

مستشارا معه، حيث أنه ذاهب صلبة زميل إلى الاشتراكية بباريس
وبيرن ويمدّهم هناك برأيه، وفي ضمن ذلك روج روعي ما لا يحسن
التصريح به، وبالتالي جاء مخبرا على الوفد أنه داجن في الطلب.
ربّ سائل يسأل : ما هذا السكوت من أعضاء الحزب الحرّ وأنصار
المسألة التونسية، وما بالهم لم يعلنوا بعدهم عنه من أول الأمر، سيّما
بعد امتناعه من إمضاء العرائض وتسّره (بأجنبيّته)، وعدم قبوله لرئاسة
الوفد الثاني ؟

فالجواب هو الفرار من وقوع هاته الرّجّة التي تُقرأ في وجهه من عهد
قديم، وناهيك بمن يستحسن الغرض، ويتعشّق سياسة المقيم الرّاحل
الذي قال عنه (بلتي) أنّه يقبله قبل الشّروق...

مرشد الأمة عدد 78، 1921

كلمة في الوزارة⁽¹⁾

لغة واصطلاحا

الوزارة في الاصطلاح السياسي من أسمى الخطط الدولية وأعلىها مرتبة وأهمها اعتبارا، وتتفرع بحسب النفوذ في الحكم إلى مراتب ودرجات، كما تنقسم من حيث مسؤولية العمل إلى هيئات، وإلى مجموعها ينصرف ما يراد ويقصد من مدلول لفظ الحكومات. وللتمايز في هيئتها الحكومية، خص كل وزير بإدارة تضاف له، ويرأس الجمع رئيس يلقب بألقاب تزداد على لقب الوزارة، وتختلف في الدول بحسب الاصطلاحات فيها، كالصّدر مثلا في بعض الممالك، أو كبير الوزراء، أو الوزير الأول، أو الأكبر في غيرها، أو رئيس النظار مثلا... ذلك من حيث الاصطلاح العرفي، وأمّا من حيث اللغة، فقد ذكر العلماء في وجه التسمية لها وجوها أربعة، منها : أنّه أخذوا من المؤازرة التي هي الإعانة المطلقة، أو من الوزر، وهو الثقل، تسمية للحامل باسم ما يحمله،

(1) مثار هذا التحرير هو الخلاف الذي استحكمت حلقاته بين سمو الأمير المقدس سيدي محمد الناصر باشا باي وكبير وزرائه لذلك العهد. وقد طلب إبعاده عنه إبعادا لا رجوع فيه، وظهر من الوزير التشدد، حيث كانت الدوائر السفيرية تحاول إقناع الأمير والرجوع به إلى استكشاف موجبات التكدير في العلائق ورفعها. فكان الفوز لتنفيذ إرادة الأمير رغما عن كل الوسائل التي حفت بالقضية والترجيّات التي شملت حتّى الرئيس (ميلران) عند زيارة الأمير له في سفارة المرسى في التاريخ. وقد استكتم الموجب المكوّن لذلك الغضب واستفحاله ولم يستجلى بوجه صريح، غير أنّ البعض يرجعونه إلى اصطناع المكاتب المجهول المعلن عن سموه رحمه الله تعالى، ذلك التصريح المنشور في جريدة (البتي جرنال) الباريسية افتراء وتقولا عن الدستور والدستورين الخ...

وبه سُمِّيَ من يقوم بأمر الملك وزيراً لأنه يحمل معه ما يشقّ عليه من الأمور برأيه، ويشاطره في تدبير شؤون الأمة ومصالح الرعية (وهو من الثقل بمكان).

أو من الوزر بالفتح وهو الملجأ المنيع، فيلتجأ إليه لرأيه السديد في المعضلات، وإلى المنافع التي تتجرّ من إصابة الغرض في المصلحة العامة والهامة، ويرشد إلى هذا المعنى (كلّاً لا وزر). أو من الأزّر، بمعنى القوة، قلبت همزته واوا كضفيل بمعنى مفاعل وجليس بمعنى مجالس. وقد ضعّف البعض هذا الوجه بدعوى أنّ الأصل عدم القلب.. وعندى أنّه سائغ في بعض الأوزان، بل إنّ القلب أولى إذا كان المعنى لا يستقيم بلا تغيير، أو بلا تصرف في الحروف..

هذا وقد قصّ التاريخ أنّ لهذا اللقب عظم شأن حتّى في القرون الغابرة، فلا يطلقونه إلّا على من كان مقرباً من الملك أو السلطان، محبوباً لديه، مرجّحاً في ثقته عنده لا يخشى على أسرارهِ منه.. ولا يتوهمّ خيانتَهُ في السّرّ والعلانية، وخصوصاً عند العرب الذين يقدّرون قيمة الوفاء والثبات على العهد، وإعطاء الثقة والأمانة. وممّا يؤيد ذلك، ما جاء في بعض الآثار أنّ العرب على عهد النبوة العظمى يطلقون اسم الوزير على الصديق رضي الله عنه، ويقولون إنّهُ وزير محمد (صلى الله عليه وسلّم) لعلمهم بأنّه كان يستشيرهُ أكثر من بقيّة الصحابة رضوان الله عليهم، ويخصّه من بينهم ببعض الخصوصيات ذات الشّأن لسرّ فيه، فاستحقّ في نظرهم تسميته بهذا اللقب الأمين. وإلى هذا المعنى أشار أستاذنا صاحب التيسير رضي الله عنه في تفسيره الكبير «هميان الزّاد إلى دار المعاد» في قوله تعالى «واجعل لي وزيراً من أهلي» وأظهر سرّ الطّلب من الكليم عليه السّلام بذلك القيد (أي من أهلي) وفائدته، وهي الاستعانة بذوي القربى المأخوذ في مفهومها صدق المؤازرة والوفاء فيما يوكل لأمانتهم وعهدهم، أو بمن كان في حكم ذلك المفهوم، إذ أنّ الغاية من الاعتماد هو شرع يبلغ، وصالح يخدم، وصلة تدعم، وسرّ يكتّم، ومتبوع يكرم، ومقام يجب أن يطاع ويلاحظ بالإجلال والاعتبار.

ولا عجب أن كانت تلك الأوصاف ملحوظة في أصل إطلاق لفظ الوزير على الوزير عند واضع اللغة فأصبحت كالشَّرط. وكان صاحب هذا اللقب الصَّادق عند السُّلطان بمنزلة القميص من ثيابه، وإذا قال وزيرى فكأنما قال عضدي ويميني... ولا غرابة إذا حكى التَّاريخ لنا كدرا حالكا عند اختلالها في بعض الدَّول الغابرة، وقصَّ لنا ما نجم عن خذلان الوزراء، ونكتهم لتلك الخلال، ومطامعهم في تصيير الوزارة إمارة، حتَّى حلَّ الخلل محلَّ الانتظام، والقلق بدل الاطمئنان، والعناء مكان الرَّاحة والهناء. ورحم الله شمس المؤرِّخين حيث قال في حقائقه الفلسفيَّة : إنَّ أمر وجوب صفاء السَّريَّة، والوثوق المطلق بين الأمير والوزير، هو مصدر الهناء العام، والكفالة الوحيدة في تسيير شؤون الدَّولة المرتبطة بالرَّعيَّة على المحور المستقيم، لأنَّ النَّاس كما جاء في المثل السَّائر «على دين ملوكهم». فيجب أن يكون ذلك العضد مستوفيا شروطه وملحوظا من الطَّرفين بالاعتبار. وإن لم يكن كذلك، فيتحتَّم عليه ترك المكان من نفسه نظرا لفقدان النُّتيجة المفهومة من لقبه لغة واصطلاحاً !

هذا بعض ما أمكن إثباته حول مدلول تلك الكلمة الحرِّية بكلِّ إطناب. ولكننا مع ذلك التَّقصير، فلا يسعنا إلَّا أن نقول للقارئ الكريم (عفوا) فقد أطلت عليك الكلام في خطِّ رُشحة فكرية لا يظهر المقصود من مفهومها بداهة، بل ربما كانت عند البعض في منزلة (استخراج الضَّمائر الخفيَّة بالقوانين الحرفيَّة).. وعسى أن نجاب بالمعذرة، ولا يقال ما لنا، ونذكر الماضي ونظاماته ونحن في عصر قد عمَّ الانتباه شعوبه وأدركت أممه سوء عاقبة الإطلاق فقيدت من يشغل هاتيك الرُّتب السَّامية بالأساسات الدِّستورية المقدَّسة، وجعلت الاستقرار موكولا لإرادة الأُمَّة، ووثوق الشَّعب بالسياسة الحكوميَّة بعد البيان والحساب على التَّغيير والقطمير، وأصبح من المستهجن في شرع الإنسانِيَّة بقاء صدير في صدارته والأُمَّة لا ترغب فيه، ووزير في وزارته، وقد شكى سوء فعله ملكه الذي له عليه حقُّ الولاء، ومدان له بالصَّدق والإخلاص. فسبحان محوِّل الأحوال، ومقلِّب القلوب، له الملك والملوك، وبيده الخير، وهو على كلِّ شيء قدير.

مرشد الأُمَّة، العدد 82، 1921

لأحدهم أن يهجم بسائر قواه اللسانية على أوصاف الفضل ونعوت الكمال، والباسها لممدوحه المعروف بين الناس علماً، وعملاً، وكرماً، وفضلاً... فنبهنا بسبب ذلك الجاهل أنه قد قبلنا ما رآه في معنى ذلك مع طول في الخطاب ممل، وسجع مخل، وأشعار وشعور وأخلاق زكية، ونعوت عبقرية، وماض أزهر، ومستقبل أبهر، وصفافرة درة، وسكون في المجرة، ونصرة المظلومين، والأخذ بيد المساكين المستضعفين، وتعلق الرعية، وإجلال البرية الخ... لحدّ يعتقد السامع أنّ الممدوح لا يسعه إلا أخذ الخطيب المادح من ساعده وإلقائه في الجنة.. (استغفر الله). وإليك أيها القارئ على ذلك أوضح دليل، وهو ما جاء في بعضها أخيراً من فصاحة الجمل، وجودة التراكيب التي نصّها (إنّ قلبي عاجز، وإنّ قصوري وعجزتي عن إبداء ممنونيتي وتشكراتي. فعفوكم أكبر وأوسع...) (ولا سعة إلا لعفو الله) !

وجاء أيضاً (فبحول الله وعونكم) تعالى الله عن الشريك. إلى غير ذلك من الأساليب المجهولة قبل اليوم، والتي إذا اتخذت قاعدة يجب الارتقاء في مخاطبة الملوك والخلفاء والسلاطين (يا آلهة الأرض، أو بسبحانكم ما أعظمكم وأطولكم حولا وقدرة...) لذلك يرى مرشد الأمة من واجبه إرشاد هؤلاء وإنذارهم بالاستكبار عن عبادة البشر أولاً، ثم إنهم يرحموا الحقيقة ويراعوا القاعدة، وحسبهم الاقتصار على اللازم في اللازم، ويثقوا بأنّ الذي قدره الله سيكون، ولا يكون غيره أبداً.

لطيفة أخرى في الأوسمة والنياشين

الوسام والنيشان بمعنى واحد، ولعلّ اشتقاقه يرجع إلى رفع الشان... وهو عنوان لرضاء الحكومة على حامله، وهو شرف لها تكرم به من ترضى عنه، وتقلّده في الغالب لمن يعمل في مرضاتها في السرّ والعلانية، وهو على أقسام في الرتب، وعلى أشكال وأصناف في حدّ ذاته من حيث الاعتبار، ويتفاوت جمالا وحسنا من حيث الماهية أيضا. ذلك ما يعلم من وصف هذا الجماد المحبوب لكثير من الناس. غير أنّ

قاعدة العمل له الأنفة الذكر، قد تتخلف، بل يعطى الوسام سلفاً أي
للتشيط على فعل يُترقب، أو مشروع فيه. ^١ وقد يُنعم به على الطبقات من الرجال كل بحسب أهليته. وقد حملته
النساء أيضاً، ولكن بلا شغف به، ولا صباة له كهيام الرجال بتقليده..
والظاهر أن النساء قد ألفن حمل القلائد، وشنشنة الحلّي، وجمال عقود
الدرّ والياقوت في الأعناق ^٢ ويقال أن الأصل في اختراعه يرجع إلى بعض الملوك، كوسام (اللجيون
دونور) لنابليون بونبارت، والمجيدي العثماني للسلطان عبد المجيد.
ويؤثر عن الأول أنه قد خصّه بالجيش تشيطاً للقوّد على الفتح، حيث
إنه كان يحلم بالاستيلاء على ما بين القطبين... ^٣ وقد جرت العادة (وهنا محلّ الشاهد) قبول الرّأي العام لتلك الإنعامات
على أربابها بلا إعجاب لسابق علم عنده من حال أولئك، وأنهم
المخلصون والعاملون له وعلى استحقاق للجزاء به. أمّا اليوم وقد لوحظ
عليه (أعني الرّأي العام) برودة عندما شاهد أسماء فردين أو ثلاثة في
سلسلة من أصابهم الوابل الأخير من النّياشين... ^٤
ولا يبلغك عن العقلاء إلاّ أحاديث، ألم تسمع (أنّ فلانا أخذ وساما) ؟
والجواب (تعجّباً) فماذا صنع يا ترى حتى استحقّ هذا الإنعام العظيم ؟
فيقول الآخر لأنّه وطني غيور... فربما ناله لتشيطه على الوطنيّة،
والأسرار الخفيّة، والأعمال الزكيّة، واللفّ والنشر، وعلم طبقات الأرض،
والميقات والجبر... حتى أدرك أحد المنعمين عنهم ما قرأه في العيون،
فأخذ يتأوّل ويتمحّل الموجب والسبب، ويقول في نفسه (قد أظهر السرّ
والشأن، هذا النّيشان)... ^٥

مرشد الأمة العدد 92، 1922

ففرّج على القصر السَّعيد تجد به
تحلّى من العقل الرّصين بحلّة
تحفّه من كلّ الجهات كتائب
ومن حاول المدح الذي هو أهله
تحبيّك بالإخلاص في النّظم غادة
فيا ربّ بالهادي الشّفيّع وآله
ودمه ملاذا للعباد وملجأ
وجدد دواما بالهنا عيده الذي
ودم سعه أوج المحامد راقيا
فلا برحت فوق الرّياض بلابل

جريدة «الحاضرة»، 1905.12.5



138
سليمان الجادوي بريشة الفنان عمر الغرايري

الأبطال... بالريشة والقلم سليمان الجادوي

بقلم محمود بيرم التونسي

جزيرة جربة التي تبعد عن تونس ثلاثة كيلومترات، تكاد تساوي عندي جزر بريطانيا العظمى التي يتخطى أهلها المانش إلى الأوروبيين، ويخالطونهم في كل شيء، ولكنهم يمتازون بمواهبهم الخاصة التي لا يبدلها الاختلاط ولا الزمن. ولعل جربة تفوق بريطانيا، إذا قسنا ثروة أهلها، وألمعيتهم، إلى مساحتها، وموقعها، وتاريخها. لا يوجد جربيّ خائب، وليس معنى الخائب الكافر بالله أو التّيس في الحياة، بل معنى الخيبة هنا العجز عن كسب الأموال. فقد قبض القوم على زمام التجارة التي هي روح الأعمال، واختاروا منها تجارة المواد الضرورية للبشر، كالأغذية والأكسية والأغطية. وكأنّهم مستعدّون بفطرتهم للتجارة، وجوّب الممالك لتعاطيها، فترى أحدهم وقد لا يحسن القراءة والكتابة، عالما بما يلزم التاجر من صدق الوعد، والمحافظة على الكلمة، متمشياً على الطريقة الحديثة من تسويق محلّه بصورة لا تقلّ عن محلات «فيليكس بوتان»، فيبدع مثله في تسويق علب «الكونسرف» وصناديق البسكويت، ويجلب مثله الآلة التي تقطّع شرائح الجيون حتّى لقد حسده كلّ تاجر، وقصر دونه طلاب الرّبح والثروة. ولو كان لجميع طوائف تونس ما للجربة من النّظر النّافذ والعزيمة الماضية، لما دخل إليها أيّ مستعمر.

ليس من السهل أن نحصى في هذه السطور القليلة مزايا طائفة غلبت جميع أقلّيات الدّنيا في الاحتفاظ بكيانها، والسّبق إلى اقتناء مادّة الحياة (يعني الفلوس).

بل يكفي القول بأنّ الجّري ينظر إلى جواهر الأشياء، ويحيط بأقطارها المتناهية فلا يسرح مع خيال، ولا ينخدع بوهم. وهو بطبعه هذا عدوّ للشّعْر، والتّصوير، والموسيقى، وسائر الفنون التي هي في الواقع فضول زائد، ولغو لا فائدة فيه، إذ ليس من الواجب على الرّجل الذّكي الموفّق أن يكون عالماً بقول المتنبّي مثلاً :

هَذِي بَرَزْتُ لَنَا فَهَجَّتْ رَسِيْسًا ثُمَّ انْتَشَيْتِ وَمَا شَفَيْتِ نَسِيْسًا
هذه الأنعام التي تخرج من الأوتار والأبواق تجلب النّوم والوخم إذا أردنا الصّدق.

وصورة «الجوكندا» المعلّقة في «اللّوفر» لا يشتريها عاقل بفرنكين، إذا شئنا الحقّ.

لا تحسبنا نُقص من قدر القوم، فهذه هي عقلية الأجيال القادمة في القرن الثّلاثين أو الخمسين، حيث يضيق وقت النّاس عن قرض البيت من الشّعْر، أو مداعبة الوتر، أو التّخطيط للألوان.

فأيّ رجل هذا الذي يكون من صميم الجرابية، ويحمل دمهم المرّكب من مزيج فينيقيّ، بربريّ، عربيّ، تركيّ، ثمّ ينحرف عن جادّتهم، ويحترف صناعة الصّحافة والأدب، في مثل هذا الزّمن وفي بلادنا ؟ إنّه الشّيخ سليمان الجادوي صاحب جريدة «مرشد الأُمّة».

وجريدته من النّوع «الزين العبدوني» الذي يأخذ ولا يُعطي كبالوعات الشّوارع، ولكنّه يحبّها حبّاً جمّاً، ولا ييخل عليها بالنّفقة، بل قد جمع منها مختارات وأعداد طبعها في مجلّدات كمجلّدات «الهلال» و«المقتطف». يقول المثل العربي «تحسبها خرقاء وهي صناع» أي أنّك تحسبها تعبث وتفسد وهي تصنع وتتمقّ....

يقصد : زَيْن العابدين السّنوسي.

الشيخ الجادوي في أشد الحاجة إلى جريدة. وهي إن لم «ترشد» الأمة فحسبه أن ترشده وحده، وإن لم تنفعها فيكفيه أن ينتفع بها وحده (...). إذ هو مع اشتغاله بالصحافة يشتغل بالتجارة، وعلى الأخص في التاي والسكر والمنتوجات الثمينة الخفيفة التي تأتي من الشرق. وله عملاء في الجزائر ومراكش وكل ناحية في إفريقيا الشمالية، يسلمهم بضائعه بطريقة تتعب في فهمها دواوين الجمارك وإدارة الباتيندة. وينفس الطريقة يستلم بضائعه. إذن فالجريدة تصلح في هذا الموقف، فتدافع عن الاقتصاديات التونسية، وتخيف الموظفين والمزاحمين. وعلى كل حال، فالتاجر الذي يملك جريدة خير من التاجر الأعزل.

قل معي مرة أخرى: تحسبها خرقاء وهي صناع !
اطلعت على مجلدات من مجموعة «مرشد الأمة». وهي مجلدات يُفنيك الاطلاع على واحد منها عن بقيتها.

فانتبهت إلى مقالات متينة الأسلوب، جليلة الفائدة. ولكن الذي أطلعني على تلك المجموعة، أخبرني أن معظم مقالاتها مكتوبة بقلم الشيخ مناشو. وقد علمت صدق ذلك عندما اطلعت على «مرشد الأمة» في هذه الأيام، واهتديت فيها إلى مقالات صاحبها الجادوي التي يتولى كتابتها بنفسه، وهي بلا ريب المقالات التي تهاجم «شنيق» وبنك التعاضد. فلا والله ما رأيت متعة تسلي النفس، وتنسيها الكرب أحسن من هذه المقالات.

يقول الشيخ تحت عنوان: «لقد عجزت صيغ منتهى الجموع، ومخترعو الأسماء الخمسة عن الوثوق والظفر بتحبير تقبله الفهوم عن ما يجري بين ظهرانينا في عالم الخفاء. ولا نقول أن ابن خلدون في مقدمته، والطبري في تاريخه، ولا صاحب الطول والعرض والجواهر والعرض ببالفي درجة الفهم والإفهام عن الطغمة التي أعجزت التفتازاني صاحب السعد وصنوه الجرجاني صاحب الدلائل والأسرار... إلخ».

فترى الشيخ قرأ جميع الكتب الزيتونية أو الأزهرية، وهي كتب، وأيم الحق، تحتاج إلى جزء كبير من عمر الإنسان. وقد أفنى الشيخ ذلك الجزء من عمره، ويرى من الخسارة المادية أن يضيعه هباء منثورا. فإذا

هَبَّ للحرب والدِّفاع عن الاقتصاديات، رجم خصومه بأحجار الأسماء الخمسة، والمقولات العشر، وقذفهم بمجلدات الطَّبري، وابن خلدون، وبهذا تتنظم ميزانيته الماليَّة، ولا يخسر سنتيما واحدا من ماضيه ولا حاضره.

وبعد فقد كتبت هذه الكلمة على إثر قُبُلَاتٍ لطمتها على وجنتي الشيخ
في عيد الفطر، وسأطبع عليهما قبلاَت أخرى كُلَّمَا قابلته، وسأرقب
مرشد الأمة لأسبقُ كلَّ إنسان في قراءته، وسأهتف كُلَّمَا قرأت مرشد
الأمة قائلا: ليحيى أديب جربة !

محمود بيرم التونسي
جريدة «الشباب»، عدد 9، السنة الأولى، 25 ديسمبر 1936

سليمان الجادوى

بِقَلَمِ الْبَشِيرِ الْفُورْتِي

«هو كاتب جري»، تقرأ مقاله فتقول هذا منطق الزمخشري، وكان مقولاً فأسكته الكاردينال لافيغري، ولجميعنا الأمل في أن يعود قريباً إلى (إرشاده)، وخدمة بلاده، ولكن الخوف كلّ الخوف أن يحول غرامه بضمن (البطانية)، دون ما يُنتظر منه من الخدمة العمومية».

[illegible]

وتتعدد وهي: المجال، والتخصص، والاعتماد، والجريدة، والتقديم، العدد الممتاز،
المجال، ابتداء، وهي: المجال، والتخصص، والاعتماد، والجريدة، والتقديم، العدد الممتاز،

سليمان الجادوي الصحفي والمناضل

بقلم الشيخ سالم بن يعقوب

هو العلامة الشيخ أبو الربيع سليمان بن قاسم بن سليمان بن قاسم ابن الشيخ عبد الله بن سعيد بن يحيى بن أحمد الجادوي. وُلد بحومة أجيم في جربة سنة 1293 هـ/ 1876 م، وفيها تلقى مبادئ العلوم، وبالتحديد بمدرسة جامع ليمس، ثم التحق بجامع الزيتونة وحضر دروس عدة علماء منهم: الشيخ أحمد بَيْرَم، الشيخ إسماعيل الصفايحي، الشيخ عثمان بن المكي التوزري، الشيخ محمد النجار، الشيخ محمد بن يوسف، والشيخ مصطفى رضوان.

وبعد أن بقي الشيخ سليمان مدة ثلاث سنوات يدرس بجامع الزيتونة، ارتحل إلى يفرن بجبل نفوسة، ولازم دروس الشيخ الجليل عبد الله يحيى ابن أحمد الباروني المتوفى سنة 1331 هـ/ 1913 م، بمدرسته بالبخابخة. وبعد أن ملأ وطابه من العلم، عاد إلى وطنه، وأثر مهنة التجارة كجل أبناء جزيرة جربة، فاكترى دكانا بسوق اللفة بتونس العاصمة، وأصبح هذا الدكان منتدى يقصده السياسيون والأدباء.

وامتاز الشيخ سليمان بنشاطه السياسي، إذ عندما تأسس «الحزب الحر الدستوري» سنة 1339 هـ/ 1920 م، انتخب عضوا في اللجنة

التّفيذية، وكان في مقدّمة وفد الأربعين إلى الملك محمّد النّاصر باي. وقد بذل في سبيل القضية الوطنيّة والقضايا الإسلاميّة بصفة عامّة مجهودات قيّمة كبرى.

وإلى جانب نشاطه السياسي، كان الشّيخ سليمان صحافيًا جليلا ذا قلم لا يتوقّف عن الكتابة، فلا تُمنع له جريدة حتّى يُصدّر أخرى، وقد أصدر ثلاث جرائد :

1 - جريدة «المرشد» : أسّسها سنة 1324 هـ/ 1906 م، وقد أوقفها السّلط الاستعماريّة بعد عامين من صدورها.

2 - جريدة «مرشد الأمّة» : وهي الجريدة الثّانية التي أصدرها، وكان ذلك سنة 1326 هـ/ 1908 م. وبقي يُصدرها بغير انتظام إلى السّنوات الأخيرة من حياته.

3 - جريدة «أبو نواس» : وهي متميّزة بأسلوبها المرّي وسخريّتها اللاّذعة. صدرت سنة 1327 هـ/ 1909 م ولم يُكتب لها البقاء، إذ عمدت السّلطة القضاء عليها في المهد. وقد حلّ أسلوبه ومميّزاته الشّيخ محمّد الفاضل بن عاشور¹.

وللشّيخ سليمان كذلك «الفوائد الجمّة في منتخبات مرشد الأمّة»، وهو كتاب طبع بالمطبعة التّونسيّة بسوق البلاط بتونس سنة 1343 هـ/ 1925 م، يحتوي على 784 صفحة، ويشتمل على مختارات من مقالاته المنشورة في جريدة «مرشد الأمّة» تتّصل أساسا بالسياسة الوطنيّة أو بالقضايا الإسلاميّة.

كما له قصيدتان بعثهما للشّيخ المجاهد سليمان باشا الباروني، الأولى قبل محاكمته أيّام دولة حافظ باشا، والثّانية يهنّؤه فيها بالبراءة في محاكمة سنة 1316 هـ/ 1898 م.

القصيدّة الأولى :

بعثها الشّيخ سليمان من تونس إلى الشّيخ سليمان باشا الباروني وهو يومئذ في القلعة السّلطانيّة بطرابلس، قبل صدور العفو الشّاهاني، وقد

(1) انظر المقال المذكور في باب «ما كُتب عنه» في هذا الكتاب.

بلغه صورة إحضار الشيخ للمحاكمة وما أجراه دولة حافظ باشا (والي)، قال فيها :

يا ابن الباروني يا ذا العلم والأدب
يا ألفت الناس أخلاقاً وأكملهم
لنا اشتياق إلى عليا أعظم من
قد ساءنا سرنا ما أنت تحمله
إننا عهدناك شهماً سيّداً بطلا
ذا همّة مصلحاً ذا عفة شهرت
أجدادك الغر في العصر القديم علوا
فيهم أمير وفيهم عالم وبهم
وكيف لا ونرى التاريخ مجدهم
دار الخلافة قد أولتكم مكرمة
حاشا لهمتكم العليا يدنسها
قد تنكر العين نور الشمس من رمد
وهاكها حرة خوذاً محجلة

نجل الإمام الهمام الفاخر النسب
حلماً وفضلاً فكم لله من عجب
شوق الحجيخ إلى الأبناء والنسب
ذاك التفات فلا تجزع ولا تهب
مهتداً أسداً سمحاً لدى الطلب
تسمو ما ترك الغر أسماً الشهب
فافخر بأصل شهير المجد في الكتب
أسد وذو المال منهم حاتم العرب
في كل عصر وهل للبدر من حجب
والجاهلون بأهل الفضل في تعب
أقوال من شأنها التقيص بالذهب
وقد يرى النور ناراً حامل الحطب
كالشمس بازغة في منزل الأدب

فأجابه الشيخ سليمان باشا الباروني بقوله :

لله درك يا ابن الجادوي فما
أهديت عقداً غريباً النظم لؤلؤه
حل السرور بنا منذ جاءنا فغدا
إنني أقدم شكري بالقريض ولا

أوفاك خلاً وما أدراك بالأدب
من منطلق صيغ من مستعذب العرب
سبحان في خجل حسان في عجب
أبوح عجزاً بما ألقاه من طرب

القصيدة الثانية :

أمّا هذه القصيدة فقالها الشيخ سليمان وهو طالب بـ«يفرن» وهي تهنة أرسلها إلى صديقه المجاهد سليمان الباروني، المتوفي في

(1) يشير إلى ما وُشي به في حق الشيخ سليمان الباروني إلى دار السعادة حتى صدرت الأوامر ببراءته وبغزل أعضاء مجلس الاستئناف انتصاراً للحق وحفظاً لشرف المنصب والعدل.

«بُمْبَايَ»، يوم 22 ربيع الأول سنة 1359 هـ/ 1940 م، يُهنّؤه فيها بصدور حكم البراءة من المحاكمة التّركيّة بطرابلس، والتي كان فيها عُرْضة للحكم بالإعدام من أجل تهم سياسيّة ملفّقة. فقال فيها :

أنس نما أم بحر علم الدفاتر طما أم همى غيث الهنا بالبشائر
وفي «بقرن» بذر غدا اليوم لامعا أضاء دياجي الليل من كل عامر
عنيت به صنو الفؤاد الذي غدا ولأمين تاجا عن رؤوس الأكابر
سليمان نجل الذائع الصيت شيخنا عبيد الإلاه قدوة للأواخر
ألا أيها الخلّ الصديق الذي بدت مفاخره مثل النجوم الزواهر
بل أعلم التحرير الجهد الذي له الحجة البيضاء عند التناظر
بل الضيغم المنصور في كل فرقة وكنت فريد الوصف قطب البوائر
أذقت كؤوس الرعب والخوف حاقداً وأخمدت جهراً كل غاوي وماكر
قدّمت على الأوطان يا علم الهدى قدوماً كبذر التّم فارتاح خاطري
وضاءت بك الأوطان شرقاً ومغرباً وتاهت على الأقطار من كل عامر
تجملت يا قمر العلا بجماله وحزت فخاراً فوق كل مكابر
تباشرت البلدان وازداد أنسها وفاحت بها روض الربى في الأبائر
فجادو ديار العز والمجد والعلا سمّت وتجلّت في ثياب المفاخر
فبشّري لكم بشري ديار نفوسة بذلكم الشّهم العظيم المآثر
سليمان يا ضو الفؤاد فإن لي إليك تبارحاً من الشوق ظاهر
لكم في زوايا القلب من مكانة ولست وأيم الله فيكم بفاتر

عن تاريخ جزيرة جربة ومدارسها العلميّة

للشيخ سالم بن يعقوب، تونس، 2006

سليمان الجادوي

بقلم الدكتور محمد حمدان

عندما يحترف التاجر الصحافة، قد يتبادر إلى الذهن أنه سيستغل هذه الحرفة لكسب المزيد من الربح بدون اعتبار للمبادئ، والرسالة النبيلة للصحافة. ولكن سليمان الجادوي لم يكن من هذا النوع، إذ دخل غمار الصحافة منذ سنة 1906، وانتهى مطافه الصحفي سنة 1950، ولم تكن مسيرته طوال هذه الرحلة مكلّلة بالورود وبالربح الوفير، بل كانت محفوفة بالتهديدات والخطايا والسجون.

ولد سليمان بن قاسم الجادوي حوالي 1876 بقرية آجيم في جربة، منحدرًا من أسرة تنتمي إلى بلدة جادو الليبية. وكان والده تاجراً وأخواه تاجرين في مواد الصوف والزراعي. وبدأ دراسته في جربة، ثم تحول مع عائلته إلى تونس، ودرس في الزيتونة، وارتحل إلى «يفرن» في جبل نفوسة بليبيا للتفقه في المذهب [الإباضي]. كما تحول إلى القاهرة لأغراض تجارية فلم ينجح، وعاد إلى تونس ليتابع دروس الخلدونية.

ودخل الجادوي ميدان الصحافة التي شهدت انطلاقة مشهودة في بداية القرن، بعد إلغاء الضمان المالي الخاص بإصدار الصحف. وأصدر منذ 23 نوفمبر 1906 جريدة أسبوعية عنوانها «المرشد» فبرزت نزعته للنقد والمحاكمة منذ بداية مسيرته الصحفية، ولم يمض شهر على

إصدار جريدته حتّى شنّ حملة ضدّ السّلطة الفرنسيّة في تونس، وضدّ قاضي سليمان، وقاضي نابل، وضدّ شيوخ جربة. ونتيجة لشكوى قاضي سليمان ونابل، قضت محكمة الدّريّة يوم 19 مارس 1907 بسجن الجادوي لمدّة نصف شهر، وبدفعه غرامة تقدّر بثلاثمائة فرنك. كما قرّرت السّلطة تعطيل جريدته. ويعتبر الجادوي من أوائل المسجونين التّونسيّين من أجل أفكارهم، ومن أجل حرّيّة التّعبير الصّحفي، وهذا ما دفع طلبة جامع الزيتونة آنذاك إلى التّآزر معه، وجمع التّبرّعات لدفع غرامته الماليّة حتّى يعود لإصدار صحيفته.

وعاد الجادوي لإصدار «المرشد» في جويلية 1907، ولكنّه تعرّض من جديد في 28 ديسمبر 1907 إلى حكم جديد بالسّجن لمدّة شهرين، وبغرامة مائة فرنك يدفعها مع مدير جريدة الرّشدية حسين بن عثمان، ويعود هذا الحكم إلى تهجّمه هذه المرّة على الباي نفسه. ولم تفتّر عزيمته، وخرج في سبتمبر 1908 إلى قفصة، وصفاقس، وقابس، وجربة، يجمع الاشتراكات لفائدة جريدته. على أنّ أربعة شيوخ من جربة اتّهموه لدى الكاتب العامّ للحكومة باستعمال وسائل التّهديد في جمع الاشتراكات، وهذا ما أدّى إلى تعطيل «المرشد» بقرار مؤرّخ في 13 ديسمبر 1908، وإلى قبر الجريدة نهائياً.

ولم يتخلّ الجادوي عن مهنة المتاعب، إذ عاد للسّاحة الصّحفيّة سنة 1909 بعنوان لا يختلف كثيراً عن العنوان السّابق، هو «مرشد الأمّة»، وأصدر أيضاً جريدة أسبوعيّة ثانية هي «أبو نواس» وتمتاز بأسلوبها الهزليّ ونقدها اللاّذع. وجاءت التّشكّيات مرّة أخرى من قبل الموظّفين، والمتعاملين مع سلّطة الحماية، وتعدّت التّشكّيات حدود تونس لتأتي من السّلطة الفرنسيّة بالجزائر. على أنّ الجريدتين لم تتوقّفا إلاّ مع الصّحف العربيّة الأخرى إثر أحداث الجلاّز بقرار 8 نوفمبر 1911 الشّهير.

وينصرف الجادوي بعد ذلك، وطوال فترة الحرب العالميّة الأولى إلى التّجارة، ويتحوّل العديد من المرّات إلى الجزائر لبيع الصّوف في قسنطينة، ولكن اتّصالاته بغيره من الصّحّافيين التّونسيّين المضطّهدين مثله لم تنقطع، وأصبح متجره، في سوق اللّفة، منندى للوطنيّين. وقد

حاول إصدار جريدة بعنوان «مرشد الأمة» سنة 1914، فلم يفلح بالرغم من اتّخاذه لكلّ الإجراءات لطبعها وتوزيعها.

وتنتهي الحرب، فيسعى الجادوي مع زملائه الصحفيين للعودة للميدان الصحفي. وتعود جريدة «مرشد الأمة» للسّاحة الإعلامية في بداية عام 1920 في مناخ سياسيّ تميّز بتبلور الحركة الوطنية التّونسيّة، وبإنشاء الحزب الحرّ الدّستوري التّونسي، ويقف سليمان الجادوي مناصرا لهذا الحزب، ويبقى الجادوي وفياّ له بالرّغم من انسلاخ جماعة الإصلاحيين، وجماعة المستقلين عن هذا الحزب. وتفتح جريدة «مرشد الأمة» أعمدها لقادة الحزب ولأقلامه لمساندة القضية الوطنيّة ولمواجهة التّجنيس وخنق الحريّات العامّة.

ولم يسلم الجادوي في هذا الطّور أيضا من القمع الاستعماري، فقد شنّ حملة شعواء ضدّ نصب تمثال «الكاردينال لافيغري» في العاصمة سنة 1925. وقد أثارت هذه الحملة المظاهرات الشعبيّة بتونس في 28 نوفمبر 1925، والتدخل العنيف للشرطة، وأدّت هذه الأحداث إلى تعطيل «مرشد الأمة» بقرار مؤرّخ في 5 ديسمبر 1925، ولم يقع إلغاء هذا التّعطيل إلّا سنة 1936 عندما وصلت الجبهة الشعبيّة إلى الحكم في فرنسا، وعندما تمّ وضع قانون تحرّري للصحافة في تونس. وتعود «مرشد الأمة» للصدور سنة 1936، وعُمر الجادوي يقارب السّتين، فإذا بالجريدة تشيخ كصاحبها، وتتقطع عن الصدور، لتعود مرّة أخرى في 5 سبتمبر 1948، ويتواصل صدورها حتّى سنة 1950. ولكن لا يقدر على مواصلة المسيرة، فينطفئ في 19 نوفمبر 1951 بضاحية حمام الأنف.

عن كتاب «اعلام الإعلام» للدكتور محمد حمدان

الشيخ سليمان الجادوي

بقلم الدكتور حميدة النيفر

الرجل المستقل

أصدر سليمان الجادوي في مطلع هذا القرن ثلاث صحف، هي : «المرشد»، و«مرشد الأمة» (وهي استمرار للأولى بعد منعها)، و«أبو نواس»، والتزم في الصحيفتين الأوليتين خطأ وطنياً محافظاً، جلب له الكثير من التقدير والاحترام في الأوساط التقليدية والوطنية، في حين نحا في الثالثة منحى هزلياً اعتمد «النكتة» وسيلة للنقد، وتعرية ثغرات الواقع التونسي، وخاصة ما يتصل منه بالإدارة الفرنسية، مما جعل للجادوي إسهاماً بارزاً في الصحافة التونسية آنذاك، مكّنه من خبرة طبعت صحفه جميعاً، وخاصة «مرشد الأمة»، فجاء خطابه متميزاً على أكثر من صعيد :

- امتازت المقالات بتناسق تركيبى، ومتانة في الأسلوب، جعلها بعيدة عن سجع عصور الانحطاط، متجنبة بساطة العامية، وسقم عباراتها. فالمقال عنده نسيج يُذكر القارئ بأمّهات الكتب العربية القديمة.

- حافظت أغلب المقالات على طابع تحليلي طويل يستوفي حق القضية المعالجة، مما جعل بعضها يُعطي أحياناً كامل الصفحة الأولى، ويبلغ عند الاقتضاء حلقتين يفصل فيهما القول، ويكشف عن كل ما يخالج محررها من جوانب النقاش ومستلزمات الحوار.

كما أن الجادوي تجنّب في صعيفته التّعميم وإرجاء الحلول، بل سعى إلى تقديم خطاب حاسم يُعطي حلولاً لأهمّ القضايا الوطنيّة والإسلاميّة والدّوليّة.

فانطلق من تصوّر للإسلام يعتبر الوطنيّة والاجتهاد جوهر الدّين، ثمّ بحث وضع المسلمين المعاصر، فرصد تنامي الإسلام في كثير من الأصقاع العالميّة، كما حلّل طبيعة الأزمة الزيتونيّة، واقترح مخرجاً رآه الأصوب في تقويم ما اعوجّج من حال الجامع الأعظم.

لكنّ هذه المداخل الواقعيّة، وهذا الخطاب الحماسي الذي يصل إلى حدّ التّحريض في بعض الأحيان، ما كان ليُرضي الإدارة الفرنسيّة التي اعتبرت الجادوي من أعدائها الألداء.

ومع ذلك، فإنّ هذه التّهم الاستعماريّة المعرّقة لم تؤثر في الجادوي، إذ أنّه كان يتمتّع باستقلال مادّي عن الإدارة، جعلها عاجزة عن أن تمسّه بسوء.

الإسلام والعمل

يعتبر الجادوي أنّ الإسلام دين مدنيّة وحضارة، ودين إصلاح واستقامة، احتوى مبادئ وإقية، وتعاليم سامية، تضمن لمن اتّبعتها الفوز في الدّنيا والآخرة، ثمّ لاحظ أنّ ما يُشاهد من حال المسلمين التي انحدرت إلى سفح الهرم الحضاري ليس إلّا انحرافاً جوهريّاً عن جوهر الإسلام الذي أنزله الله على العقول المكتملة، ولم يُخاطب به العقول المحدودة، ولهذا، فإنّ المسلمين بعد أن وصلوا إلى درجة من التّخلّف، ألصقوا بالإسلام كثيراً من العادات السيّئة التي أفقدته روحه التّغييريّة، فهو لا يرى أنّ وضعيّة المسلمين مستحيّلة التّغيير، بل يعتبر أنّه بالإمكان الخروج منها، شرط الإصرار على مجموعة من الاختيارات الأصليّة التي من أهمّها :

1 - تنقية الإسلام من البدع : فالدين الإسلامي لم يأمر أهله بالمعتقدات السّخيفة كتلك التي سادت في عصور الانحطاط، فاعتبرت أنّ للفرس «كرامة» وأنّ بول الدراويش يشفي من الآلام. الإسلام على

عكس ذلك، دين علم وتبصّر، دفع بكثير من الأوروبيين الذين بلغوا مكانة قصوى في المعارف إلى ترك ما لديهم من المعتقدات واعتناقه. ويخلص الجادوي من هذا المثال إلى أنّه يجدر بالمسلمين تجنب الشعوذة التي لا تزيدهم إلّا جموداً، والبحث فيما يلائم عصرهم من حلول وابتكارات لا تخرج عن دائرة الشرع¹. ثمّ أكّد أنّ مثل هذا التوجيه لا يتسنّى إلّا بقيام العلماء بمهامهم لأنّ لهم في الأمة مقام الأنبياء. ولمزيد الإلحاح على هذا المعنى، يثني صاحب «مرشد الأمة» على السيّد جمال الدين الأفغاني، وتلميذه محمّد عبده، ورشيد رضا، الذين سعوا في الأرض لنفي الضلالة والبدع، فما وجدوا من إخوانهم سوى السبّ والشتّم.

2 - تنمية الحسّ الوطني : ترى «مرشد الأمة» أنّ المهمة الرئيسيّة للعامل، ومقصده الأسمى، هو الاشتغال بما يهتمّ الوطن العزيز «فيودع ليله، ويستقبل نهاره بالتفكير والتدبير، للتخلّص من يد الذلّ والتقهقر»². فهي تعتبر أنّ حبّ الوطن آية تدلّ على حياة المحبّ، وتقتضي منه البحث الجديّ عن مستلزمات تطويره، وهو ما لا يتسنّى إلّا ب :
أ - عدم التفرّق والاختلاف : توجّه الصّحيفة دعوة «شاعريّة» إلى أرباب الوجدان الطّبيعي من أجل الدّخول تحت راية الأخوة، والتمسك بعري المساواة، لقطع سلاسل الاستبداد «فلا نتخالف، ولا نجعل اختلاف المشارب والمنبت والنسبة موجبا للتباغض، بل علينا أن نترك هذا الطّيش الأعمى الذي لا يُجدي نفعا، ونقذف من قلوبنا علّة التقاطع والخداع»³.

ب - الاجتهاد وعدم التّسليم بالواقع : تحثّ الصّحيفة المسلمين على الاجتهاد والمثابرة في العمل لإدراكها أنّ خصائص المسلمين في تلك الفترة، فتور الهمة، وضعف العزيمة، وموت الأمل، وهي نفس الصّفات

(1) «مرشد الأمة»، عدد 33، بتاريخ 1911.01.13 : مقال «جولة فكريّة في حال الأمة التونسيّة».

(2) «مرشد الأمة»، عدد 37، بتاريخ 1911.02.24 : مقال «حبّ الوطن من الإيمان».

(3) المصدر السابق.

التي تسعى الحكومات المستبدّة إلى تثبيتها استعبادا للشعوب، بينما تحرص الحكومات العادلة والحرّة على إعداد الرّجال النّاهضين قصد إبلاغهم درجات الرّقّي المطلوبة.

فانحطاط المسلمين لم ينشأ إلاّ بنبذ الاجتهاد، لذلك يُحذّر الجادوي من آفة الخمول التي ما أصابت أمة إلاّ امتدّت إليها أعناق الطّامعين، أمّا الاكتفاء بالتذكير بمجد الماضي، والافتخار بالآباء، فهو لا يشفي غليلا، ما دام المسلم لم يمهّد السّبيل إلى إصلاح حاله الاجتماعي بالسّعي والكدح.

ج - تنمية العلوم التّطبيقية : تؤكّد «مرشد الأمة» أنّ أوّل هذه العلوم فائدة للوطن هي الزّراعة، لذلك حثّ المسلمين على تطويرها بتكوين الشّركات للمحافظة على الأراضي، وتسهيل بيعها وتداولها بين المسلمين، ولجلب الآلات الزراعيّة المتطوّرة، والتّعريف بالطّرق الفلاحية العصريّة، وإرشاد النّاس إلى منافعها، حتّى يتعلّق الفلاح بأرضه، فلا يُفرط فيها، متّعظا بقول الشّاعر :

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصداً ندمت على التّفریط في زمن البذر

عن : أطروحة الدّكتور احميدة النّيفر

«الخطاب الديني في الصحافة التّونسيّة»، (مرقونة)

سليمان الجادوي

[وقضية الحجرة التجارية]

بقلم خميس العرفاوي

من هو سليمان الجادوي ؟
هو تاجر أصواف في سوق اللّفة، أصيل جزيرة جربة، ومستقرّ في تونس. تولّى إدارة جريدة «المرشد» الناطقة بالعربيّة، والتي صدر عددها الأوّل يوم 23 نوفمبر 1906.

حكمت عليه «محكمة الوزارة» بالسّجن لمدة 15 يوما من أجل تهمة لها طابع صحفي.

وفي 2 جويلية 1909، أصدر جريدة «مرشد الأُمّة» بالموازاة مع جريدة «أبو نواس».

عرف بحملاته الحادّة ضدّ السياسة الاستعماريّة بتونس التي أوقفت جريدة «مرشد الأُمّة» في 5 سبتمبر 1925.

ويبدو من خلال المذكرات السريّة المتعلّقة بالجادوي، أنّه تخلّى عن نشاطه المعارض للهيمنة الفرنسيّة بعد 1925، فزكّته الحكومة الفرنسيّة بتونس سنة 1928 عضوا في مجلس قيادة جربة، وفي «مجلس الجهة الخامسة» حيث، لم ينتج سلوكه إلى حدّ الآن أيّ نقد¹.

ترشّح لعضويّة «الحجرة» من جديد سنة 1932 نيابة عن مجموعة

(1) و ع ح ت، س E ص 222 م 7 و 64، محضر لجنة النزاعات، يعود التاريخ إلى 1932.

المهن الثانية التي ينافسه عليها أحمد بن مامي، وفاز في الدورة الثانية بـ 230 صوت مقابل 200 صوت لمنافسه.

وكان هذا الفوز بداية ردود فعل متباينة. فقد وجه أغلب أعضاء مجلس العشرة في جمعية الشّواشين المهنية عريضة إلى المدير العامّ للداخلية يعترضون فيها على احتمال تزكية الجادوي، لأسباب مهنية، ولأنّه نزيل سجون، وسبق أن أفلس، ويساندون أحمد بن مامي الذي ينتمي إلى جمعيّتهم وإلى فئة الأعيان¹.

كما قدّم أحمد بن مامي طعنا في الكيفية التي ضُبطت بها قائمة النّاهبين من المجموعة الثانية، وقدّم تحفّظات حول سوابق الجادوي العدليّة والسياسيّة. فقد قال في شأنه: «إنّ الجادوي هو رجل سياسة قبل أن يكون شيئا آخر، ولقد أشرف سياسيون بارزون على ترشّحه»². وعندما تحوّل الطّعن إلى لجنة التّراعات المتكوّنة من نائب عن الإدارة العامّة للفلاحة والتّجارة والاستعمار، ورئيس مصلحة ومساعد مصلحة في الإدارة العامّة للداخلية، اقترحت تزكية عضويّة سليمان الجادوي الذي لم تعد سوابقه العدليّة والسياسيّة مبرّرا لإقصائه بعد تزكية عضويّته في مجلس قيادة جربة ومجلس الجهة الخامسة³.

إلا أنّ الإدارة تأخّرت في الإعلان عن التّسميات. ولقد نبّهت جريدة «صوت التّونسي» الرّأي العامّ إلى هذا التّأخير، وأشارت إلى المناورات التي تحيكها الإدارة العامّة للفلاحة والتّجارة والاستعمار، والتي تستهدف سليمان الجادوي⁴.

ولقد أحدث إقصاء الجادوي لفائدة أحمد مامي ردود فعل في الأسواق، وخاصّة في صلب التّجار الجرابية. واحتجّت الصحافة على «القرار الاعتباطي الذي يمثّل طعنة خطيرة للحرية الانتخابيّة»⁵.

(1) وع ح ت، س ع ص 222 م 2/7 و 182، بتاريخ 1932.01.15.

(2) وع ح ت، س ع ص 222 م 2/7 و 188، بتاريخ 1932.01.18. ف م ف

(3) وع ح ت، س ع ص 222 م 7 و 64، نفس المصدر.

(4) ج «صوت التّونسي»، جريدة ناطقة بالّلغة الفرنسيّة. بتاريخ 1932.2.9.

(5) أرشيف الإقامة العامّة ش 112. ص 1728 م 2 و 390 تقرير أمني بتاريخ

1932.2.13. ف م ف

وقد كتب الشاذلي خيرالله مدير جريدة «صوت التونسي» : «أليست دعوة النّاهبين وجعلهم يقرعون، ثمّ لا تؤخذ أصواتهم بعين الاعتبار، مسرحيّة انتخابيّة هزليّة ؟ إنّ الحكومة تقوم بمهزلة قبيحة لن يرضى بها سكّان هذا البلد طويلا. فالإدارة ستتّهي بجعل الجميع يستاءون، وستوجّه إجماع كلّ الأشخاص النّزهاء ضدها بحكم المناورات التي ما تنفكّ تقوم بها في الكواليس مجرورة وراء بوانكاروت تونسيّ حريص على إحاطة نفسه حيث ما حلّ، وحيث ما جلس، برجال من أتباعه». ويقصد خيرالله بـ«بوانكاروت» : محمّد شنيق الذي ساند أحمد بن مامي لدى الإدارة، وشككت مجموعة في صدق سليمان الجادوي، معتبرة إياهم عدوّا متعصّبا لفرنسا، ولا يمكن أن يتعاون مع الحكومة بشكل مفيد.

إنّ الضّجّة التي أثارها طريقة التّزكية، ساهمت في تطوير نظام «الحجرة» ونسخ الفصل الخامس من أمر 25 مارس 1928، وأصبح الانتخاب هو القاعدة بمقتضى أمر 10 أوت 1938. وتحصل الأعراف والتّجار، بواسطة هذا الأمر، على نظام نيابيّ أكثر تحرّرية في ظروف عودة القمع الاستعماري للحركة الوطنيّة، وسعي السّلطة إلى استمالتهم وتقسيم الشعب التونسي.

عن : «النّخب الاقتصاديّة التونسيّة في عهد الاستعمار».
شهادة الكفاءة في البحث، إعداد الطّالب خميس العرفاوي،
بإشراف الأستاذ التيمومي. (مرقونة)

(1) ج صوت التونسي، بتاريخ 17/2/1932.

رثاء الصّحفي القدير سليمان الجادوي

لأمير الشعراء محمد الشاذلي خزندار

وقلت راثياً أحد الإخوان الأفذاذ، من ذوي الغيرة والشرف، ومن كبار رجال الصحافة التونسية النوابع وجريدته الشهيرة «مرشد الأمة»، ومن المؤسسين معنا للحركة المليّة، وأحد أفراد لجنتنا التنفيذية المكوّنة من 1322 هـ (1904 م) من كبار رجال التجارة في سوق اللّفة أيضاً، ومن خريجي جامع الزيتونة الأقدمين، والمناضل عن ذماره، والمجاهدين الأبطال في كلّ ما يمسّ العقيدة وحرمة الدّين السّمح، أخانا سليمان الجادوي، وقد أدركته المنية، وهو بمقرّه بحمام الأنف، يوم الاثنين تاسع عشر صفر الخير، وفي مثله من نوفمبر سنتي 1371/1951، ودفن صبيحة يوم الثلاثاء في مقبرة البلد، تغمّده الله بالرحمة والرضوان :

سبحانك اللهم أنت المفردُ
في اللّانهاية كلّنا مُتَطَوِّرُ
هذا فلانٌ من فلان كائنٌ
نبكي وفينا من بكينا هم مَضَوِ
سيرٌ حثيثٌ هكذا مُسْتَرَسِلُ
بَيَّتَانِ فوق تُرابها أو تحته
طوبى لمن زرع الهنا فجنى المنى
وسواك في تكوينه يتعدّدُ
وعناصرٌ في بعضها تتجدّدُ
أو في فلان قبل وضعه يوجدُ
والبعض في بعض يموت ويولدُ
فيه نقوم وفيه أيضاً نَقْعُدُ
في أي بيتيها يطيب المرقّدُ
فهنا الشّا وهناك ما سيخلّدُ

هذا «سُلَيْمَانُ» المِثَالُ لِمَنْ سَعَى
 فِي السَّابِقِينَ الْعَامِلِينَ لِنَهْضَةِ
 كَمْ خَطَّ فِي الصُّحُفِ الرِّسَالُ أَنْجُمًا
 مَجْمُوعَةً مِنْ غَرْسِهِ مِسْكِيَّةٌ
 لَأَقَى الْكُورِثُ فِي سَبِيلِ جِهَادِهِ
 صَانَ الْعَرِينَ مَنَاضِلًا عَنْ حَقِّهِ
 «الْجَادَوِي» وَحَسَبُ «جَرِيَّة» شَخْصُهُ
 زَانَ الصَّحَافَةِ وَالتَّجَارَةِ صَادِقًا
 نَعَمَ الصَّحِيفَةُ فَهِيَ «مُرْشِدُ أُمَّةٍ»
 بِيضَاءِ مَصْدَاقِ السَّرِيرَةِ لَمْ تُشَبَّ
 إِنَّ الثَّمَانِينَ الَّتِي انْصَرَفَتْ بِهِ
 عَدَدَ الْعُقُودِ لِسَنِهِ قَدْ فُتِّحَتْ
 حَوْلَ الشَّفِيعِ وَنَحْنُ صَفًّا وَاحِدًا
 نَمْ يَا مُوَحَّدَ مَطْمَئِنَّا مَا شَدَا
 فِي تَوْنِسَ الْخَضِرَاءِ ذَكَرَ الْجَادَوِي

ديوان الخزندريّات، الجزء الخامس، مجموعة (أ)

نَحْنُ هُنَا فِي سَبِيلِ جِهَادِهِ
 صَانَ الْعَرِينَ مَنَاضِلًا عَنْ حَقِّهِ
 «الْجَادَوِي» وَحَسَبُ «جَرِيَّة» شَخْصُهُ
 زَانَ الصَّحَافَةِ وَالتَّجَارَةِ صَادِقًا
 نَعَمَ الصَّحِيفَةُ فَهِيَ «مُرْشِدُ أُمَّةٍ»
 بِيضَاءِ مَصْدَاقِ السَّرِيرَةِ لَمْ تُشَبَّ
 إِنَّ الثَّمَانِينَ الَّتِي انْصَرَفَتْ بِهِ
 عَدَدَ الْعُقُودِ لِسَنِهِ قَدْ فُتِّحَتْ
 حَوْلَ الشَّفِيعِ وَنَحْنُ صَفًّا وَاحِدًا
 نَمْ يَا مُوَحَّدَ مَطْمَئِنَّا مَا شَدَا
 فِي تَوْنِسَ الْخَضِرَاءِ ذَكَرَ الْجَادَوِي

شكر وامتنان

أتوجّه بالشكر والامتنان إلى السادة الأفاضل :

- لطفى الشاذلي
- بوبكر خلوج
- أحمد الجلولي
- فتحي اللواتي
- أنس الشاذلي
- فرحات الجعبري
- فتحي ابن الحاج يحيى
- مسعود يامون
- الذين أفادوني ببعض المعلومات الخاصة، وأمدوني بمجموعة من الوثائق والصور ووجدت منهم العون والمساعدة في إنجاز هذا العمل.

المصادر والمراجع

- 1 - جريدة «المرشد».
- 2 - جريدة «مرشد الأمة».
- 3 - جريدة «أبو نواس».
- 4 - أعلام الإعلام في تونس، محمد حمدان، مركز التوثيق القومي، تونس، 1991.
- 5 - أضواء على الصحافة التونسية، عمر بن قفصية، تونس، 1972.
- 6 - الصحافة الهزلية في تونس، حمّادي السّاحلي، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996.
- 7 - تاريخ الصحافة العربية وتطوّرها بالبلاد التونسية، محمد صالح المهدي، منشورات معهد علي باش حانية، تونس، 1965.
- 8 - تراجم المؤلّفين، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985.
- الإسلام ماضيه وحاضره
- الصحافة
- الصناعة
- القوة في الاتحاد
- جريدة المعمر الفرنسي
- الجهل والظلم
- لأجل الصحافة العربية

97	 التمدّن
101	 من السّماء إلى الأرض
105	 من هو أعظم رجل في العالم ؟
107	 فذلكة أو الوطنيّة هنا وهناك
110	 في عالم الخيال (محادثة بين الوطن ودوكانريار)
116	 هل إلى الرّقّيّ من سبيل ؟
121	 الوطن للوطنيّين
126	 ما بعد العيان بيان
131	 كلمة في الوزارة لغة واصطلاحا
134	 لطائف أدبيّة
137	 صدّى عيد الفطر (قصيدة)

الفصل الثالث

..... ما كُتب عنه

141	 الأبطال بالرّيشة والقلم : سليمان الجادوي لمحمود بيرم التّونسي
144	 سليمان الجادوي للبشير الفورتي
145	 سليمان الجادوي الصّحفي المناضل للشيخ سالم بن يعقوب
149	 سليمان الجادوي للدكتور محمّد حمدان
152	 الشيخ سليمان الجادوي للدّكتور احميدة النّيفر
	 الشيخ سليمان الجادوي وقضيّة الحجرة التّجاريّة
156	 لخميّس العرفاوي
159	 رثاء الصّحفي القدير سليمان الجادوي لمحمّد الشّاذلي خزندار
161	 شكر وامتنان
163	 المصادر والمراجع

167	
168	
169	
170	

97	التمنن
101	من السماء إلى الأرض
105	من هو أعظم رجل في العالم ؟
107	فذلكة أو الوطنية هنا وهناك
110	في عالم الخيال (محادثة بين الوطن ودوكارنيار)
116	هل إلى لرقني من سبيل ؟
121	الوطن للوطنيين
126	ما بعد العيان بيان
131	كلمة في الوزارة لغة وأصطلاحا
134	لطائف أدبية
137	صدي عبد القطر (قصيدة)

الفصل الثالث

عبد الوهاب ما كتب عنه

141	الأبطال بالريشة والقلم : سليمان الجادوي لمحمود بيرم التويني
144	سليمان الجادوي للتقدير الفوري
145	سليمان الجادوي الصحفي المناضل الشيخ سالم بن يعقوب
149	سليمان الجادوي للدكتور محمد حمدان
152	الشيخ سليمان الجادوي للدكتور أخويده النضر
	الشيخ سليمان الجادوي وقضية الحجرة التجارية
156	لخفيص المرفاوي
159	رثاء الصحفي التقدير سليمان الجادوي لمحمد الشاذلي خزندار
161	شكر واستان
163	المصادر والمراجع

تم طبع هذا الكتاب بالمطابع الموحدة

مجموعة سراس

10، شارع عبد الرحمان عزكم

1002 تونس

فيفري 2007

ما يجب أن تعرف عن سليمان الجادوي

... إن التزام الجادوي بالعمل الصحفي الحر المسؤول يستند إلى مرجعية ذاتية وموضوعية ظل مقتنعا و متمسكا بها في مختلف مراحل نضاله الصحفي. وقد كتب في هذا المعنى موضحا رأيه الصريح في الصحافة : «عليها أن لا تتزلف للحكومات، وأن لا تخدم الأغراض السافلة، وأن تقاوم المستبدين، وتنبذ الاحتيال والتدجيل، وعليها أن تدافع عن حرية الفكر....».

الميلاني ابن الحاج يحيى



ولد بميدون (جربة) في 21 جوان 1929، زاول تعليمه الابتدائي بمسقط رأسه في الكتاب والمدرسة القرآنية، أتم تعليمه الابتدائي بالمدرسة العربية الفرنسية بنهج الكنز بتونس حيث أحرز على الشهادة الابتدائية وبعد ارتحاله إلى العاصمة أنهى تعليمه الثانوي بجامع الزيتونة. تحصل من المدرسة الخلدونية على دبلوم العلوم العملية سنة 1949، وعلى شهادة التحصيل في العلوم من الجامع الأعظم سنة 1950. تابع دروس معهد الدراسات العليا. شارك في مناظرة مدرسة ترشيح المعلمين سنة 1951 وعين معلّم تطبيق بعد أن أحرز على شهادة الكفاءة البيداغوجية. انتدب متفقدًا للتعليم الابتدائي سنة 1957. شغل خطة رئيس مصلحة بديوان التربية الاجتماعية في الستينات. التحق بوزارة الشؤون الثقافية وكلف بإدارة المكتبات العامة. أحرز على منحة من منظمة (الأونسكو) للتخصص في فن المكتبات بمعهد أمناء المكتبات بجنيف (سويسرا). اشتغل خبيراً في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لمدة ثلاث سنوات، ثم عين مستشاراً لوزير الشؤون الثقافية. أحيل على التقاعد بطلب منه للتفرغ خاصة لإحياء التراث وتأليف المعاجم العربية. له ما يزيد عن عشرين مؤلفاً.

رقم الناشر: 01 0840



9 789973 196903

ISBN 9973-19-690-3

صورة الغلاف : الوفد الذي واجه المقيم (سان) إثر رجوعه من فرنسا لاستفساره حول القضية التونسية ومن بينهم الجادوي.

www.ceres-editions.com

الثلث : 6,500 د.ت